محاضرات

مقدمة
في علوم البلاغة

الفرقة الأولى/ تربية عام/ قسم اللغة العربية

أستاذ المقرر

د. حمد الله عبد الحكيم محمد

العام الجامعي
٢٠٢٣م/ ٢٠٢٤م

بيانات الكتاب

الكلية: كلية التربية بقنا.

الفرقة: الأولى.

القسم: تعليم عام

المقرر: مقدمة في علوم البلاغة

التخصص: اللغة العربية والتربية الإسلامية.

عدد الصفحات: مائة وست وثلاثون صفحة.

العام الجامعي: ٢٠٢٣م / ٢٠٢٤م

الرموز المستخدمة

شرح لقواعد العلم.

نصوص للقراءة.

أنشطة ومهام.

تدريب للتفكير والتقييم الذاتي.

"خَيْرُ الكلام مَا طَرُفَتْ مَعَانيه، وشَرُفَتْ مَبَانِيه، والْتَذَّه آذان سَامِعِيه"

خالد بن صَفْوان

مقدمة

البلاغة لا غنى عنها لدراس اللغة فبها يكون التعبير واختيار المفردات والصور والأساليب، ويعرف بها المتكلم الفصيح من المكروه والغريب، كما يعرف آليات التواصل وأقدار السامعين.

وهو أحد الأدوات المهمة للكاتب والشاعر والقاص والمفسر والشارح والمسرحي والناقد والإعلامي والصحفي والخطيب والسياسي والقاضي والمعلم والمحاور والمتكلم وغيرهم؛ لأن به مناط الفهم والإفهام، فالفهم للتزود من المعارف والعلوم وفهم مراد المتكلم والكاتب، والإفهام لأن به يكون التوصيل الحسن؛ فغاية الكلام الإقناع أو الإمتاع.

وفي هذه المحاضرات المختارة من كتب البلاغة ورموزها نبين قدرا يسيرا تقديما لعلم البلاغة فنأخذ من كل موضوع بطرف، فأردت من خلاله التعرف على هذا العلم بعرض بعض جوانبه وهي قليلة بالقياس إلى ضخامة هذا العلم وبحره الفياض، وللباحث أن يتخذ هذه المحاضرات المختارة من كتب العلم بداية لدراسة علم البلاغة الذي هو أحق العلوم بالرعاية والاهتمام في هذا العصر الذي تعد فيه اللغة مفتاح كل العقول والقلوب؛ فبالسيطرة على المكتوب والمقروء تسود الأمم وتعرض قضاياها وتصنع صورا ذهنية في عقول أعدائها كل ذلك عن طريق بلاغتها التعبيرية.

أقول إن معجزة هذا العصر معجزة لغوية في زمن توقفت فيه المعجزات مع انتهاء الرسالات بالرسالة الخاتمة رسالة النبي محمد– صلى الله عليه وسلم– الهادي إلى صراط الله المستقيم.

وقد عرض الكتاب لعدد من الموضوعات التي يرغب من الطالب أن يناقشها وأن يوسع معارفه فيها، فما نقل هنا يسهم في وضعه على طريق هذا العلم وعليه أن

يجد ويجتهد في إدراك علم هو من أجل العلوم.

وجاءت هذه المحاضرات لبيان العلاقة بين الفصاحة والبلاغة مع تعريف كل منهما وذكر فصاحة اللفظ مفردا أو في التركيب، كما عرضت للبلاغة وتعريفاتها وحكم البلاغة وآلياتها وعناصرها وجماليات المعنى وكيفية مخاطبة المتلقي، وعرضت للبيان القرآني مفجر الدرس البلاغي من خلال عرض تطور الدرس البلاغي من مؤلفات إعجاز القرآن مرورا بإسهام علماء اللغة في هذا الدرس ثم إسهام علماء البلاغة حتى استقرار الدرس البلاغي عند عبد القاهر والسكاكي والقزويني وكذلك الفرق بين المتن والشرح والحاشية والتقرير مع التعريف بعلوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

وبينت في هذه المحاضرات نظريتان مهمتان في الدرس البلاغي اللغوي عامة ولغة القرآن خاصة هما نظريتا الصُّرفة للنظَّام والنظم لعبد القاهر، ثم عرضت لتخير اللفظ والبلاغة والنظم، وكذلك لم أترك أمرا مهما يتصل بهذا المضمار هو نشأت اللغة وتطور التعبير اللغوي وذكرت شيئا من بلاغة القرآن الكريم وبلاغة الحديث النبوي الشريف.

وقد كان علم البلاغة منثوراً في كتب تفسير القرآن عند بيان إعجازه وفي كتب شرح الشعر ونقده ومحاضرات الأدباء من بداية القرن الثاني من الهجرة؛ فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ١٤٤ هـ) كتاب مجاز القرآن، وألف الجاحظ عمرو بن بحر (ت ٣٤٤هـ) كتباً كثيرة في الأدب.

وكان بعض من هذا العلم منثوراً أيضاً في كتب النحو؛ مثل: مؤلفات الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب تلميذه سيبويه ولم يخص بالتأليف إلا في أواخر القرن الثالث إذ ألف عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي (٢٤٧ /٢٩٦) كتاب البديع من سبعة عشر نوعاً وعد الاستعارة منها.

ثم جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، فألف كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، أولهما في علم المعاني والثاني في علم البيان فكانا أول كتابين ميزا هذا العلم عن غيره ولكنهما كانا غير ملخصين ولا تامي الترتيب فهما مثل در متناثر كنزه صاحبه لينظم منه عقداً عند تأخيه فانبرى سراج الدين يوسف بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي المعتزلي (٥٥٥/ ٦٢٦) إلى نظم تلك الدرر فألف كتابه العجيب المسمى مفتاح العلوم في علوم العربية وأودع القسم الثالث منه الذي هو المقصود من التأليف مسائل البلاغة دونها على طريقة علمية صالحة للتدريس والضبط فكان الكتاب الوحيد اقتبسه من كتابي الشيخ عبد القاهر ومن مسائل الكشاف في تفسير القرآن للزمخشري فأصبح عمدة الطالبين لهذا العلم وتتابع الأدباء بعده في التأليف في هذا العلم الجليل.[١]

[١] راجع/ موجز البلاغة، الطاهرين عاشور، ص٧.

بين

الفصاحة والبلاغة

(١) الفصاحة

الفصاحة والبلاغة كلمتان ارتبطتا معا في الدرس البلاغي، وبدا وضوح ذلك في طريقة عرضهما كلما بدأ كاتب في الحديث عن علوم البلاغة؛ وخاصة أولها وهو علم المعاني، والحديث عن الفرق بينهما.

أول من وضع هذه المعايير للفصاحة والبلاغة في إطارها الذي تناولته الكتب نقلا والزيادة عليه والنقصان منه، هو ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة"، ثم سار على دربه السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم".

فقد تحدث ابن سنان عن عن فصاحة الكلمة وبلاغتها باعتبارها المفرد المُوَقَّع الدال على معنى، وباعتبارها المؤلف وحدد لهما شروطاً خاصة...

الفصاحة (لغة): البيان. فصُح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فُصحاء وفِصاح وفُصْح، وامرأة فصيحة من نسوة فِصاح وفَصائح. ورجل فصيح وكلام فصيح، أي بليغ، ولسان فصيح: طَلْق.

وأفْصح يُفصِح إفصاحاً: أبان وأوضح... وفَصُح الأعجمي فَصاحة: تكلم بالعربية وفُهم عنه... وتفَصَّح: تكلَّف الفصاحة... والفصيح في كلام العامة: المُعَرَّب. والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول، الذي يعرف جيد الكلام من رديئه[١].

الفصاحة- اصطلاحا- تعني الإبانة والظهور والإيضاح والبراعة والبلاغة في اللفظ المفرد والمؤلف[٢]، وقال الجاحظ: "الفصيح هو الإنسان، والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه"[٣].

---

(١) لسان العرب:مادة:(فصح).
(٢) لسان العرب، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط (فصح).
(٣) الحيوان، ص ٣٢/١.

الفصيح الذي يستطيع الإفصاح عن كلامه حتى يعرفه السامع، ويميز كلامه، فإذا لم يستطع الإفصاح عن كلامه لا يعد فصيحا؛ لذلك تعلق اللفظ باللسان وبطريقه الإبانة وظهور الكلمات ظهورا بينا واضحا.

قال تعالى عن موسى عليه السلام وكان قد لحق لسانه ضعف نتج عن حرق النار لسانه عندما كان ربيبا في قصر فرعون: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) (القصص:٣٤)

وقصر النويري الفصاحة على العرب، بحيث يرى أن الفصاحة لا توجد إلا في العرب، أما البلاغة فهي لهم ولغيرهم(٤).

ويقول صاحب الطراز: "اعلم أن الفصاحة في الألفاظ المفردة يجب أن تكون مختصة بخصائص: الخاصة الأولى؛ أن تكون اللفظة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة؛ لأن الفصاحة والبلاغة مخصوصان بهذا اللسان العربي دون سائر اللغات من الفارسية والرومية والتركية، فلا مدخل لهذه الألسنة في فصاحة وبلاغة"(١).

ويرى ابن الأثير: أن كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعاني؛ إلا أن للغة العربية مزية على غيرها، لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها"(٢).

فالإفصاح عن الكلام بإبانته وإظهاره، وبوصفها صفة للسان الخالي من العيوب، وهو وإن لحق باللسان وعد وصفا لخلوه من العي إلا أنه يصدق على بلاغة المتكلم وقدرته عن توصيل ما يريد.

يقول عبد الله ابن رواحة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(٤) انظر/ نهاية الأرب ٧/ ٦ و ١١.

(١) الطراز، ص ٥٦.

(٢) المثل السائر ٨٥/١.

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبَيَّنةٌ كانت فصاحتُه تنبيك بالخبر

والعلاقة بين لفظ الفصاحة والبلاغة قديمة جدا، فقد كانت تذكر الفصاحة وتراد البلاغة أو العكس.

ولم يضع العلماء حدا فاصلابينهما؛ فالجاحظ يعرف البلاغة في كتابه (البيان والتبيين)، بتعريف ابن المقفع لها في قوله حين سئل: "ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة"(٣).

فالفصاحة لديه مرتبطة بسلامة النطق وصحة مخارج الألفاظ، ونقاء اللغة.

وذهب إلى إثبات رأيين للفصاحة والبلاغة معاً:

الأول: تَرْجِعُ الفصاحة والبلاغة إلى معنى واحد؛ فكل منهما للإبانة عن المعنى والإظهار له.

الثاني: الفصاحة والبلاغة مختلفتان، فالفصاحة من تمام آلة البيان؛ مما يجعلها مقصورة على اللفظ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فهو مفهوم مقصور على المعنى. ولا شيء أدل على ذلك عنده من أن الببغاء يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً، وليس له قصد إلى معنى يؤديه... ومن هنا نفذ إلى حديث بديع عن النظم المستمد من ماهية فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى(١).

ويرى ابن سنان الخفاجي أن: "الفصاحة مقصورة على اللفظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني... وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً"(٢)

---

(٣) البيان والتبيين ١/١٥.

(١) انظر الصناعتين، ص ٧-٩.

(٢) سر الفصاحة، ص٦٠.

ورأى القزويني أن: "البلاغة في المتكلم ملكة يُقْتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فَصاحته" (٣).

وعلى هذا فإن ابن سنان الخفاجي هو أول من وضع حدودا للفصاحة والبلاغة معتمدا على آراء من سبقه؛ فالفصاحة في اللفظ المفرد؛ والفصاحة والبلاغة في اللفظ المؤلف عنده.

أ: فصاحة اللفظ المفرد

الواضح ممن تكلموا في فصاحة اللفظ ذهابهم إلى أن الفصاحة تكون في اللفظ المفرد عند كثير منهم، أما البلاغة فتكون في اللفظ عند إفراده، وعند تأليفه مع غيره، وإن كنت أميل إلى أن الفصاحة مرتبطة بالآلة وهي اللسان بأن يكون خاليا من العيوب والعي، وأن ترتبط الفصاحة باللفظ المفرد، وإذا أطلقت على البلاغة فمن منطلق التوسع.

وقد ذكر البلاغيون للفظ الفصيح شروطا حتى يكون كذلك؛ عرض لها ابن سنان الخفاجي وغيره من علماء البلاغة وهي كالآتي:

تنافر الحروف وتباعدها

جاء الاهتمام بالحروف من جهة مباشرتها للسمع، فاستعمال الحروف لابد أن يكون بطريقة لا تزعج السامع فينفر منها، لذلك كان لابد لمخاج الحروف أن تكون متباعدة حتى لا يبعدها تقاربها في المخرج عن الفصحة.فكلمة (الهُعْخع) بتقارب مخارجها بعيدة عن الفصاحة، فجميع هذه

(٣) التلخيص في علوم البلاغة، ص٣٢.

الحروف حلقية، يقول الخليل: "سمعنا كلمة شنعاء هي (الهُعْخع) وأنكرنا تأليفها".

وكذلك كلمة "مستشزرات" في قول امرئ القيس:

غدائره مُسْتشزراتٌ إلى العلا تضل العقاصُ في مثنَّى ومُرْسَلِ

فمخارج حروفها من جهة واحدة هي الأسنان، هو السر وراء نفور الذوق والسمع منها، لأن التكرار الحادث بخروج حروفها من مخرج واحد يؤذي السامع، الذي تحاول البلاغة إقناعه، فلعدم توافر فصاحة الكلمة يؤثر ذلك بدوره على الكلام المؤلف فلا تبقى هناك بلاغة.

وكذا "جَفَخَ" في قولِ المتنبي:

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم شِيَمٌ على الحسَبِ الأغَرِّ دلائلُ

قال القلقشنديُّ في صبحِ الأعشَى في صناعةِ الإنشا: "فإن لفظةَ (جَفَخَ) مرةُ الطعم، وإذا مرتْ على السمعِ اقْشَعَرَّ منها. وكان له مندوحةٌ عن استعمالِها؛ فإن جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ، وهما في وزنٍ واحدٍ؛ فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ ويَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ ويَجْفَخُونَ لاستقامَ وزنُ البيتِ، وَحَظِيَ في استعمالِه بالأحسنِ

.ويقول القلقشنديُّ في هذا: "فإن حاسةَ السمعِ هي الحاكمةُ في هذا المقامِ في تحسينِ لفظٍ وتقبيحِ آخَرَ، على أنه قد يجيءُ من المتقاربِ المخارجِ ما هو حسنٌ رائقٌ. ألا ترى أن الحروفَ الشجريةَ وهي الجيم والشين والياء متقاربةُ المخارجِ؛ لأنها تخرجُ من وسطِ اللسانِ بينَه وبين الحنكِ، وإذا تَرَتَّبَ منها لفظٌ جاءَ حَسَنًا رَائِقًا؟! فإن لفظةَ جَيْش قد اجتمعَ فيها الحروفُ الشجريةُ الثلاثةُ، وهي مع تقاربِ مخارجِها حسنةٌ رائقةٌ؛

وكذلك الحروفُ الشفهيةُ وهي الباءُ والميمُ والفاءُ متقاربةُ المخارجِ، فإن مخرجَ جميعِها من الشَّفَةِ، وإذا تَرَتَّبَ منها لفظٌ جاءَ سَلِسًا غَيْرَ مُتَنَافِرٍ، كقولِك: أَكَلْتُ بِفَمِي، وهو في غايةِ الحسنِ، والحروفُ الثلاثةُ الشفهيةُ مع تقاربِ مخارجِها مجتمعةٌ فيها، وقد يجيءُ من المتباعِدِ المخارجِ ما هو قبيحٌ متنافرٌ كقولك: مَلَعَ، بمعنى عدا، فإن الميمَ من الشفةِ، والعينِ من حروف الحلقِ، واللامَ من وسطِ اللسانِ؛ فهذه الحروفُ كلُّها متباعدةٌ من بعضها ومع ذلك فإنها كريهةُ الاستعمالِ يَنْبُو عنها الذوقُ السليمُ، ولو كان التباعدُ سببًا لِلْحُسْنِ لما كان سَبَبًا لِلْقُبْحِ".

- غراية الكلمة ووعورتها وسوء تأليفها.

ليس التباعد في مخارج الحروف هو الأصل في الفصاحةعلى الدوام ولكن لابد أن يتفق مع حسن تأليف الحروف أيضا، والعمد إلى اختيار اللفظ البليغ دون غيره، لما يحدث من تناغم حروفه.

فكلمة غُصن أحسن موقعا من كلمة (عُسْلوج)، رغم تباعدها في المخرج بين حروفها، فالأصل إذن في طريقة التأليف، ومن هذه الألفاظ المستكرهة في تأليفها، والتي كانت سببا في توجيه النقد للمتنبي؛قوله في مدح سيف الدولة:

وما قست كل ملوك البلاد فدع ذكر بعض، بمن في حلب

ولو كنت سميتهم باسمه لكان الحديد وكانوا الخشب

أفي الرأي يشبه أم في السخاء أم في الشجاعة، أم في الأدب

مباركُ الاسْمِ أغَرُّ اللقَبْ كريمُ **الجِرِشَّى** شريفُ النَّسبْ

فالجِرشَّى تعني النفس، فاستعملها هنا ولكنها ليست حسنة التاليف، وهو ما رآه أبو هلال العسكري[1].

واللغة العربية لغة لجميع العرب، ولغة قريش هي لغة الحضارة عندهم، على أثرها ينظم الناظم شعره، والناثر نثره، وعلى الشعراءالمتبارين في الشعر أن ينظموا أشعارهم على منوال هذه اللهجة التي يعرفها أهل الشمال والجنوب في جزيرة العرب، وتأتي وعورة اللفظ ووحشيته من جهة أن يأتي الشاعر في بيئة العرب قديما بكلمة تحتاج إلى التساؤل عن معناها، فإذا ما حدث ذلك عد الشاعر ممن ياتي بالغريب النادر، وهو وإن كان صحيحا في اللغة، إلا أن البلاغة تأباه، والفصاحة لاتقبله.

فقد جاءت كلمة (كهل) من قبل استعمال الغريب؛ يقول الشاعر:

فلو أنَّ سلمى جارَهُ أو أجارَه رياحُ بنُ سَعْدٍ ردَّهُ طائرٌ كهلُ

فاستعمالها نادر وغريب وهو ما ترفضه الفصاحة؛ والكهل هنا بمعني الضخم. وقال الأزهري: يقال طار لفلان طائر كهل إذا كان له جد وحظ في الدنيا . ونبت كهل: منتاه، واكتهل النبت: طال وانتهى منتهاه، وفي الصحاح: تم طوله وظهر نوره.

ومثله كلمة (بوزع) في شعر جرير يقول:

وتقول بَوْزَعُ: قد دببتَ على العصا هلا هَزئتِ بغيرنا يا بوزَعُ

وروي أن الوليد بن عبد الملك قال له: أفسدت شعرك بـ"بَوْزَع".

ومنه قول زُهير بن أبي سلمَى:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لمْ يُكَثِّرْ غَنِيمةً بِنهْكَةِ ذي قُرْبَى ولا بحَقَلَّدِ

الحَقَلَّدِ: البخيل أو السيء الخُلُق.

---

(١) انظر/ الصناعتين، ص ٧-١٣ .

ومثله كلمة الفداغم في قول الكميت:

وَأَدْنيْنَ البُرودَ على خُدُودٍ يُزَيِّنَّ الْفَدَاغِمَ بِالْأَسِيلِ

الفُدْغُم: الخد الحسن الممتلئ، ولكنها كلمة رديئة.

وقد يكون توعر الكلمة من تعدد اللغات في الكلمة الواحدة، كالبُوْع المقابلة للباع، وهما سواء.

الابتذال والعامية.

ومن هذا قول أبي تمام:

جَلَّيْتَ والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صفحته وقد تَفَرْعَنَ في أوصاله الأجَلُ

فالفعل: تفرعن، مشتق من فرعون، للدلالةعلى البغي والظلم وهو من ألفاظ العامة لا من البليغ الفصيح، العربي الأصيل.

البعد عن الشذوذ.

أن تكون جارية على الكلام الفصيح المعروف وبما نقل عن العرب في أبنيتهم للكلمات.

ويدخل في هذا كل ما أنكره أهل اللغة، وعابوه على الشعراء من ألفاظ لاتجري على القياس، أو أنها أعجمية، يقول البحتري:

تشقُّ عليه الريحُ كلَّ عشية جيوبَ الغمام بين بِكْرٍ وأيِّمِ

فوضع الأيم مكان الثيب، وليس الأمر كذلك، ليس الأيم الثيب في كلام العرب، إنما الأيم التي لا زوج لها بكرا كانت أم ثيبا. قال الله –عز وجل: {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم}. وليس مراده تعالى نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار، وإنما يريد النساء اللواتي لا

أزواج لهن. فالكلمة قد تكون عربية، إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة، فوضع الأيم مكان الثَّيِّب، وليس الأمر كذلك.

وقد يكون مفهوم المخالفة لما تواضع عليه العرب في حذف بعض حروف الكلمة أو زيادة حروف فيها، فمن الحذف، قول الشاعر:

فلست بآتيهِ ولا أستطيعهُ كِ اسقني إن كان ماؤك ذا فَضْلِ

حيث حذف النون في كلمة (ولكن)، والمراد: ولكن اسقني.

ومن الزيادة ما يكون بإشباع الحركة في الكلمة حتى تصبح حرفاً، كقول ابن هرمة في رثاء ولده؛ حين قال:

وأنت على الغواية حين تُرْمى وعن عيب الرجالِ بُمْنتَزَاحِ

(منتزاح: أي بعيد عنه) بدل (منتزح).

وقد تكون الكلمة شاذة قليلة الاستعمال مثل (اللَّذْ) بدل (الذي)؛ كقول المتنبي:

وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلام اللذْ عنا

تعبير الكلمة المختارة عن شيء يكره إلى جانب شيء آخر مألوف.

فذكرها في الموضع يجعل الذهن يميل بها إلى ما تعارف عليه في اللغة وما اشتهرت به، ولكن القصد بها إلى معنى آخر لا يعطيها هذه الصورة الذهنية التي أعدها لها السامع عند سماعها.

يقول أبي تمام:

مُتفجرٌ نادمته فكأنني للدَّلْو أو للمِرْزمينَ نديمُ

فقصد أبوتمام هنا إلى استعمال الدلو لبروج السماء، والمعروف أن الدلو؛ هو لاستخراج الماء من البئر فهو يقول له أنت كالدلو كرما والمرزم

جودا، لأنهما من نجوم السماء التي يرتبط بها المطر... فاستعمال الدلوهنا غير مقبول لما يتبادر إلى ذهن السامع من معرفة بالدلو تجعله لا يعي المراد الآخر منه.

ويقول عمرو بن معديكرب:

فكم من غائطٍ من دون سلمى قليلِ الأُنْسِ ليس به كَتيعُ

وقد يستعمل شاعر آخر معنى مثل (الغائط) المعروف بشيوعه وتأديته لغرض معين؛ ولكن المراد باللفظ معنى آخر وهو المطمئن من الأرض، فلم يحسن استعمال اللفظ هنا لتأديته معنى هو في ذهن السامع شائع ومقصور عنده على معنى آخر.

ولعل ذلك يدخل ضمن ذلك التطور الدلالة في الألفاظ، ومن ثم تغير العواطف والأذواق(١).

عدم تناسب عدد الحروف

ويركز هذا النوع على دلالة اللفظ بعدد حروفه، فالزيادة في اللفظ والطول فيه على غير دليل وحاجة دافعة إليه يقلل من فصاحة اللفظ، فيخرج اللفظ بهذا عن حدود الفصاحة، وقد يختص الشعر بكراهة هذا دون غيرهمن فنون القول.

يقول المتنبي:

إن الكريمَ بلا كرام منهمُ مثلُ القلوب بلا سُويداواتِها

فقبح استعمال اللفظ هنا من جهة استعمال الشاعر للشاذ من تراكيب الألفاظ، فكثرة حروفه، أدى إلى طول الكلمة الذي أدى بدوره إلى قبح استعماله هنا.

---

(١) انظر/ سر الفصاحة ١٥-٥٨.

ومثله قول أبي تمام:

العِيْسُ تعلم أنَّ حَوْباواتها ريحٌ إذا بلغتك إنْ لم تُنْحرِ

فقد أتى بكلمة (حَوْباواتها) وهي جمع حوباء بمعنى النفس، فكنت كثرت الحروف سببا في قبح استعمال اللفظ وإخراجه من الفصاحة.

ويقول أبي تمام أيضا:

فلأذربِيجانَ اختيالٌ بعدما كانت مُعَرَّس عِبْرةٍ ونكالِ

المُعَرَّس: المكانُ الذي ينزلُ فيه المسافِرُ آخر الليل.

فلم يحسن استعمال كلمة (أذربيجان) لثقلها وكثرة حروفها ولأنها لفظ أعجمي، كان الأولى بالشاعر أن يكون ذكيا في استعمال لفظ يشين البيت أكثر مما يضيف إلى حسنه فالعدول عن ذكر مثل هذه الأشياء يعد من براعة الشاعر وعلو منزلته.

فطول الكلمة وكثرة حروفها يدفع السامع إلى الملل، واستعمال الكلمات الأعجمية لا يعطي ذلك الجرس الذي يعطيه اللفظ الفصيح لأن كلمات اللغة العربية لها تركيبها الفريد، وهو ما لا تجده في أي لغة أخرى مهما كانت، فيؤدي عدم الاختيار من الألفاظ الأعجمية إلى الاستكراه والثقل على الأذن والنفس لما في هذه الألفاظ من تنافر إذا حسن في لغتهم فلا يصلح في لغتنا التي اعتادت على جرس معين للألفاظ.

التصغير والمراد التعظيم

يأتي التصغير للتعبير عن شيء طريف؛ فيعمد الشاعر إلى استعماله لما يؤديه اللفظ من معنى معين، وطريقة مخصوصة، فإذا خرج عن معناه الموضوع له وظهر استعماله أنه في غير موضعه لم يلق استحسانا من السامع وكان ذلك سببا في توجيه النقد إلى مستعمله.

يقول لبيد بن ربيعة:

وكلُ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ

فاتي الشاعر بالتصغير بمعنى التعظيم في قوله: (دويهية) وهو مما لايقبله الذوق أو الحس.

فالأصل في التصغير ان يأتي للتحقير فإذا ما خرج عن معناه الموضوع له دون هدف من هذا العدول فقد ذهبت القيمة التي يبغيها التصغير.

من هنا تبين قيمة استعمال اللفظ مفردا في موضعه، وما يلحقه من قبول أو رفض من السامع لذات اللفظ دون النظر إلى موقعه من التركيب، فاختيار اللفظ نفسه في حد ذاته يعد من البلاغة؛ لأن هذا اللفظ سياتي في سياق فإذا ما حدث ضعف في جانب – أعني به خروج اللفظ من الفصاحة– أدى ذلك إلى الإضرار ببلاغة الكلام وإن كان التركيب حسنا، فخلو هذه الكلمة من الفصاحة يؤدي إلى الإضرار بالتركيب نفسه.

وقد تميز القرآن الكريم بفصاحة ألفاظه واستعماله ما يناسب جرس كل سياق، فلما حسن استعمال اللفظ أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تماسك التركيب وحسن تأليفه.

مخالفة القياس الصرفي

هو كون الكلمة شاذة غير جارية على القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب، بأن تكون على خلاف ما ثبت فيها عن العُرف العربي الصحيح،١١ مثل (الأجْلَل) في قول أبي النَّجْم:

الحمدُ للهِ العَليِّ الأجْلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القَدِيم الأوَّلِ

فإن القياس (الأجَلَّ) بالإدغام، ولا مسَوِّغ لفكهِ.

ومنه استعمال الفرزدق نواكس جمعًا لناكسٍ وصفًا لمذكّر عاقل في قوله:

وإذَا الرّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيتَهُمْ خُضْعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ

فكلمة "نواكس" مؤنثة فهي جمع "ناكسة"، والصواب أن يقول: "ناكسي" للتذكير، قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (السجدة:١٢)

وممّا هو مخالف للقياس استعمال هَمْزَةِ القطْعِ بدلَ همزة الوصْل، واستعمال همزة الوصل بدل همزة الْقَطْعِ، ويكثُرُ مثْلُ هذَا في الشِّعْرِ لِمُرَاعَاةِ الوزن.ومنه قول جميل بن مَعْمَر:

ألاَ لاَ أرَى إثْنَيْنِ أحْسَنَ شِيمَةً عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلِ

فقطع همزة "اثنين" مع أنّها همزة وصْل، وحدَثان الدهر نوائبه، وأراد بِكَلِمَةِ "جُمْلِ" فَرَسَهُ أو جَمَلَه، ويُستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفًا للقياس ولكنه فصيح.

لهذا لم يخرُج عن الفصاحة لفظتا «المشرق والمغرب» بكسر الراء، والقياس فتحها فيهما. وكذا لفظتا «المُدهُن والمُنْخُل»، والقياس فيهما مِفْعَل بكسر الميم وفتح العين. وكذا نحو قولهم: «عَور» والقياس عار؛ لتحرُّك الواو وانفتاح ما قبلها.

ب . فصاحة اللفظ في التركيب.

كما ذكرنا من قبل أنه إذا كان اللفظ المفرد يؤدي غرضا معينا، يحسن من خلاله استعمال اللفظ فإن اللفظ حال تركيبه يؤدي غرضا جماليا لا يستطيع اللفظ المفرد تأديته.

وفي السطور القادمة نركز الضوء على اللفظ المؤلف في تركيبه، ذلك التركيب الذي يعطي اللفظ قدرا من القوة خاصة في تحديد مدلوله، فمراعاة سبك الكلام وحبكه حتى يوافق ما يبغيه المتكلم من كلامه، فيصل إلى مبتغاه عن طريق توصيل ما يريده وما يقصده بالتحديد فيضع اللفظ موضعه ويراعي في ذلك ما يسمى بالتناسب بين أجزاء الجملة.

وليس معنى أن الكلمة من الكلمات المعدودة من الفصاحة يجعل ذلك سببا في قبولها في كل تركيب بل الأصل في اختيارها هو مناسبتها لما قبلها وما بعدها.

وقد تكون الكلمة ثقيلة ولكن التركيب يضفي عليها لونا من القبول؛ لأن الموضع يحتاجها فالتعبير بها أبلغ من التعبير بغيرها.

فمثلا كلمة (ضِيْزى) في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾(النجم:٢٢). يعنى بها الجور الذي لا عدل فيه وإن شئت قلت منتهى الجور وأعلاه.

فالكلمة مفردة غريبة ولم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، في الآية السابقة، وبالنظر في موضع تركيبها وتأليفها يتضح أنها جاءت في سياق تسفيه عقول من نسبوا الولد إليهم ونسبوا البنات إلى الله تعالى عن ذلك وهم مشركو العرب؛ لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله، وفي هذا يقول ابن كثير وفي قوله:"(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى) ؟ أي: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت (قِسْمَةٌ ضِيزَى) أي: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها"(١)

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٥٨.

وليس كل ثقل يمجه الذوق، فهناك ثقل مستحسن مطلوب؛ وذلك إذا ما اقتضى المقام هذا الثقل؛ كأن تكون الكلمة موحية بما تعبر عنه من معنى، ولا سبيل إلى التعبير عن ذلك المعنى إلا بها.

ولدينا كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق، "انظر إلى كلمة (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ) (التوبة: ٣٨) تجد فيها قدراً من الثقل الفصيح؛ لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض؛ واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه وقد دعوا إليه في عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية ولذلك جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه: (إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ويَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ولا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) (التوبة: ٣٩).

وكذلك قول الله تعالى: يحكي مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (هود: ٢٨)، فكلمة "أَنُلْزِمُكُمُوهَا " فيها صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون، وانظر كلمة " فَعُمِّيَتْ " وما فيها من الإدغام والمجهول، وكيف تصفان معنى "التعمية والإلباس"[١]

ولهذا فإننا حين نراعي شروط الفصاحة في اللفظ المفرد كما أثبتها البلاغيون فإن هذه المراعاة تقتضي أن ينظر إليها متكاملة في بلاغة التأليف وفصاحته...

[١] انظر/ خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى صـ ٣٣، ٣٤، والبلاغة الصافية، ص ٩٣.

- تأليف الكلام من كلمات متقاربة:

قال أبو هلال العسكري: "حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فاذا كان المعنى سبيّا ورصف الكلام رديّا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة. واذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا فهو بمنزلة العقد اذا جعل كل خرزة منه الى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختلّ نظمه فضّمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا."[1]

كقول المتنبي:

ولا الضِّعْف حتى يبلغ الضِّعفُ ضعفَهُ

ولا ضعفَ ضعفِ الضِّعْفِ بل مثله أَلَفُ

فهذا التأليف قبيحا رغم فصاحة ألفاظه المفردة.

- تنافر الكلمات مجتمعة: زذلك نظرا لتقارب مخارج الحروف

كما استشهد البلاغيون هذا ببيت حرب بن أمية:

وقبرُ حربٍ بمكان قَفْرُ وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قَبْرُ

فالبيت متنافر التأليف ثقيل على السامع، وخاصة ذلك التنافر الواضح الذي يزعج السامع في المصراع الثاني، في قوله: وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قَبْرُ.

ونحو قول عيسى بن عمرو النحوي، حينما نزل فى ثقيف فنزل إليهم وكان ذا غرابة فى لفظه، فحكي أنه سقط عن حما له فاجتمع عليه الناس، فقال مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني.

---

١ الصناعتين، ص ١٦١.

و تكأكأتم: اجتمعتم.

ومن التنافر ما يرجع إلى تباعد مخارج الحروف بعداً شديداً حتى يكون بمنزلة الظَّفْر، فإذا قربت قرباً شديداً كانت بمنزلة مشي المقيد، فكلاهما صعب على اللسان والسهولة في الاعتدال(١).

ومثله قول أبي الطيب:

ومن جاهلٍ بي وهو يجهلُ جهلَهُ ويجهلُ علمي أنَّهَ بيَ جاهلُ

فتكرار الجهل بهذا الشكل مما يزعج السامع، وإندل أحيانا على تمكن الشاعر من أدوات فنه هذا التمكن الذي يدفعه أحيانا إلى عدم مراعة السامع بقدر ما يهتم بإظهار براعته على المجيء بلفظ واحد بتصريفات مختلفة.

وبالنظر في البيت نجد أن التكرا هو الأصل في رده وعدم قبوله عند السامع، والأصل الكلام مراعاة السامع وأحواله.

ومن التنافر ما يكون خفيف الثِّقل كالشطر الأول في قول أبي تمَّام:

كريمٌ متى أمدَحهُ والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

– يجب أن يبتعد عن الكلمات المترادفة فالترادف أحيانا لا يضيف جديدا من أجل ذلك يحسن عدم استعماله إلا في موضعه المناسب وكذلك الأضداد إلا بوجود قرينة.

– جريان الكلمة على الكلام الفصيح، وعند وجود إعرابين مثلا لها فالنظر يكون إلى الإعراب المناسب للمقام، لا أن يكون الاختيار متساويا بينهما فقد يؤدي ذلك الإعراب ما لم يؤده الآخر.

يقول المتنبي:

قوم تفرَّسَتِ المنايا فيكُمُ فرأت لكم في الحرب صَبْرَ كرامِ

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص٧٢.

فالمراد من الكلام: قوم تفرست المنايا فيهم فرأت لهم... فلا شك أن الإعراب فرع المعنى، وهو ما يكشف اللبس ويمنعه.

ضعف التأليف

وهو ناتج عن كون الكلام جارياً على خلاف ما اشُتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جُمهور العلماء – **كوصل الضميرين،** وتقديم غير الأعراف منهما على الأعرف– مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة – كقول المتنبي:

خَلتِ البلادُ من الغزالةِ ليلَها فأعاضهَاكَ اللهُ كي لا تحزنا

وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظا وَرتُبة وحكما في غير أبوابه؛ نحو:

ولو أن مَجداً أخلدَ الدهرَ واحداً من الناس أبقى مجده الدهر (مُطْعِما)

فان الضمير في من (مجده) راجع إلى (مُطْعِما) وهو متأخر في اللفظ كما يرى، وفي الرتبة لأنه مفعول به، فالبيت غير فصيح لمخالفته قواعد النحو.

ومثله قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقوله:

ألا ليت شعري، هل يلومن قومه زهيراً على ما جر من كل جانب

وهذا شاذ لا يقاس عليه.

كما **يُكره وضع اللفظ لمعنى آخر قبيح مرذول**؛ فيجب إضافة اللفظ إلى ما يقبله التركيب، ويزيد من حسنه أما أن يكون التركيب غير حسن بسبب هذه الإضافة فهذا أمر غير مقبول، يقول الشريف الرضي:

أَعْزِزْ عليَّ بأنْ أراكِ وقد خلَتْ من جانبيكِ مَقَاعدُ العُوَّادِ

فلو نظرنا إلى لفظ (مقاعد) ولفظ (العواد) كل على حدة فاللفظان فصيحان، أما التركيب المؤلف هنا وسياق الحال لا يعطي اللفظ فيمته التي أعطاها له الإفراد، والسر في الكراهة موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشأن، فإضافتهما صحيحة لا غضاضة فيها أما التأليف فقد أوضح قبح الكلام؛ لأن لفظ (العُوَّاد) هو من عيادة المريض وزيارته ولا يناسب المقام.

و**كثرة حروف الكلمة** وإن ظهرت فصاحتها في أنفسها وإفرادها إلا أن التركيب قد لا يقبل ها الطول.

يقول المتنبي:

سَمُجَتْ ونبهنا على استسماجها ما حولها من نَضْرةٍ وجمالِ

فأدى استعمال كلمة "استسماجها" إلى ضعف التركيب لظهور رداءتها الناتج عن كثرة حروفها.

قد يكون اللفظ مقبولا عند إفراده ولكن ذكر على التثنية يخرجه هذا الأمر من دائرة الفصاحة؛ يقول عبد القاهرالجرجاني:إن الألفاظَ تَثْبتُ لها الفضيلةُ وخلافُها في ملاءمةِ معنى اللفظةِ لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلُّق له بصريحِ اللفظ.

وممَّا يشهدُ لذلك أنك تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضعٍ ثم تَراها بعينِها تثقلُ عليكَ وتُوحشكَ في موضعٍ آخرَ كلفظِ الأَخدع في بيتِ الحماسة:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيَّ حَتّى وَجدْتُنِي وَجِعْتُ من الإِصْغاءِ لِيْتاً وأخدعا

وبيت البحتري:

وإنّي وإنْ بَلَّغْتَنِي شَرَف الغِنى وأَعْتَقْتَ مِنْ رِقَّ المطامِعِ أَخْدَعِي

فإنَّ لها في هذين المكانَين ما لا يخفى منَ الحُسن،ثم إنّكَ تتأمَّلُها في بيتِ أَبي تمام:

يا دَهْرُ قَوَّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فقدْ أَضْجَجْتَ هذا الأَنامَ مِن خُرْقِكْ

فتجدُ لها منَ الثِقلَ على النفسِ ومن التَثْغيصِ والتكدير أضعافَ ما وجدتَ هناك منَ الرَّوْح والخفَّة والإيناسِ والبهجة.

فالأخدعان: عرقان في جانبي العنق قد خفيا، وقد استعمله أبو تمام في موضع يرزل ذكره فيه، فلفظ (الأخدع) مفردا له فصاحته أما عند ذكره في التركيب بهذا الشكل المستعار لم يعط اللفظ فصاحته المنشودة، فلا شك أن النظم هو السر وراء حسن تأدية هذا اللفظ أو ذاك في التركيب.

الخلوص من التعقيد اللفظي والمعنوي

التعقيد اللفظي هو كون الكلام خفيّ الدّلالة على المعنى المراد به – بحيث تكون الألفاظ غير مُرتبة على وفق ترتيب المعاني.

(وينشأ ذلك التّعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبي بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض) وهو مذموم: لأنه يُوجب اختلال المعنى واضطرابه، من وضع ألفاظه في غير المواضع اللّائقة بها – كقول المتنبي

جفخت وهم لا يجفخونَ بها بهم شيمٌ على الحسَب الأغر دلائل

أصله – جفخت (افتخرت) بهم شيمَ دلائل على الحسب الأغر هم لا يجفخون بها.

وكقول الفرزدق في مدح إبراهيم المخزومي خال الخليفة هشام بن عبد الملك:

وما مثلُهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكاً أبو أُمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقاربُهُ.

ففي البيت ضرب من التعقيد؛ فالمعنى غير ظاهر لخلل في طريقة النظم، ومعناه: ليس مثله في الناس حي يقاربه، إلا مملكا أبو أمه أبوه.[1]

ويرى حازم القرطاجني في نظرية التناسب عنده أن "من ذلك حسن التأليف وتلاؤمه، والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء: منها أن تكون حروف الكلامِ بالنظر إلى ائتلافِ بعض حروف الكلمة مع بعضها، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما، ومنها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال، فتكون الواحدة في نهاية الاعتدال والأخرى في نهاية الحوشية وقلة الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن تكون إحداهما مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات أو تتماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها، ومنها أن تكون كل كلمة قوية كالطلب لما يليها من الكلم أليق بها من كل مايمكن أن يوضع موضعها.

وقد تعدم هذه الصفات أو أكثرها من الكلم وتكون مع ذلك متلائمة التأليف، لا يدرى من أين وقع فيها التلاؤم ولا كيف وقع، ليس ذلك إلا لنسبة وتشاكل يعرض في التأليف لا يعبر عن حقيقته ولا يعلم ما كنهه؛ إنما ذلك مثل ما يقع بين بعض الألحان وبعض؛ وبعض الأصباغ وبعض من النسبة والتشاكل ولا يدري من أين وقع ذلك"(١).

---

[1] أي: ليس كمثله في الناس حي يقاربه، أي حي يشبهه في الفضائل إلا مملك أعطى الملك والمال، أبو أمه، أي أبو أم ذلك المملك أبوه، أي: أبو الممدوح والجملة صفة مملكا، أي لا يماثله أحد إلا ابن أخته الذي هو هشام، وكان حقه أن يقول: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه، ولكنه فصل بين المبتدأ والخبر وهو: (أبو أمه أبوه) بالأجنبي وهو: حي وبين الصفة والموصوف وهو: (حي يقاربه) بالأجنبي الذي هو: أبوه، وقدم المستثنى، وهو: "مملكا" على المستثنى منه، وهو: "حي".

(١) منهاج البلغاء ٢٢٢-٢٢٣.

ويرى الخطيب القزويني أنه "ما كان الانتقال من معناه الأول، إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً حتى يخيل إلى السامع أنه فهمه من حاقِّ اللفظ"(١).

- **التعقيد المعنوي** كون التركيب خفيّ الدَّلالة على المعنى المراد - بحيث لا يفهم معناه إلاّ بعد عناء وتفكير طويل.

وذلك لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدّالة على المقصود .

بحيث يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلمات في غير معناها الحقيقي، فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذي يريده، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع نحو: نشر الملك السنته في المدينة، يريد جواسيسه والصواب نشر عيونه.

وبأن يكون فهمُ المعنى الثاني من الأول بعيداً عن الفهم عُرفا، كما في قول العبّاس بن الأحنَف.

سأطلبُ بُعد الدار عنكم لتقرُبوا

وتسكبُ عيناي الدُّموع لتجمُدا

جعلَ سكبَ الدُموع كناية عمّا يلزم في فراق الأحبَّة من الحزن والكمد: فأحسن وأصابَ في ذلك، ولكنَّه أخطأ في جعل جمود العين كنايةً عمَّا يوجبه التَّلاقى من الفرح والسُرُور بقُرب أحبتّه، وهو خفيّ وبعيدٌ - إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدُّعاء لشخص بالسرور (أن يقال له جُمدت عينك) أو لا زالت عينك جامدةً، بل المعروف عندهم أنّ جمود العين إنّما يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كما في قول الخنساء.

---

(١) انظر/ الإيضاح في علوم البلاغة ٦/١.

أعيني جودا ولا تجمُدا ألا تبكيانِ لصَخر النَّدى

ومثل ذلك قول امرئ القيس :

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِر[1]

الخيفانة فى الأصل الجرادة، ويريد بها هنا الفرس الخفيفة، وهذا لا بأس به وإن كان تشبيه الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف، أما وصف هذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يغطّى وجهها، فغير مقبول؛ لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذا غطّى العينين لم تكن الفرس كريمة ولم تكن خفيفة.

ومن التعقيد المعنوى قول أبى تمّام:

جذبت نداه غدوة السّبت جذبة فخرّ صريعا بين أيدى القصائد

فإنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخرّ صريعا وهذا من أقبح الكلام.

<u>كثرة التكرار والإضافات</u>

كون اللفظ الواحد: اسماً – كان أو فعلاً – أو حرفاً. وسواء أكان الاسم: ظاهراً – أو ضميراً، تعدّد مرَّة بعد أخرى بغير فائدة – كقوله:

إنّي وأسطارٍ سُطرنَ سَطراً لَقائلٌ يا نصرُ نصرُ نصراَ

يقول الشاعر: مقسما بأسطر كتبت سطرا سطرا ، أن نصر بن سيار سوف ينتصر نصرا عظيما.

وكقول المتنبي:

---

[1] شرح أدب الكاتب ٨٠/١.

وتُسْعِدُني في غَمْرةٍ بعد غمرةٍ سَبُوحٌ لها منها عليها شواهدُ

فقد أدى تكرار لفظ (غمرة) وهي بمعنى واحد؛ إلى التعقيد، والنفس تكره التكرار بما لا يفيد.

وعلى هذا فالبلاغة مصطلح عام يصدق ويجمع الفصاحة والبيان وفنون أخرى، يقول المبرد: "فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام؛ وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها"[٢].

(٢) البلاغة للمبرد، ص٥٩.

(٢) البلاغة

البلاغة (لغة):

البلاغة هي فن الخطاب، يقول ابن الأثير: مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها[١].

يقال: "بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً وصَلَ وانْتَهَى وأَبْلَغَه هو إِبْلاغاً وبَلَّغَه تَبْلِيغاً... وبَلَغْتُ المكانَ بُلُوغاً وصلْتُ إِليه وكذلك إِذا شارَفْتَ عليه؛ ومنه قوله تعالى: (فإِذا بَلَغْن أَجَلَهُنّ) (البقرة: ٢٣٤)؛ أَي: قارَبْنَه، وبَلَغَ النبْتُ انتهَى، وبَلَغتِ النخلةُ وغيرُها من الشجر حان إِدْراكُ ثمرها، وبلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى."[٢]

"والبَلاغةُ الفَصاحةُ والبَلْغُ والبِلْغُ البَلِيغُ من الرجال، ورجل بَلِيغٌ وبِلْغٌ حسَنُ الكلام فَصِيحُه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ بُلَغاءُ وقد بَلُغَ بالضم بَلاغةً؛ أَي: صار بَلِيغاً.(لسان العرب: بلغ)

وتدور معاني اللفظة حول الوصول، والانتهاء.

البلاغة (اصطلاحا):

"هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فلا بدّ فيها من التفكير في المعاني الصادقة القيّمة القوية المبتكرة منسّقة حسنة الترتيب، مع توخّي الدقّة في انتقاء الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال من يكتب لهم أو يلقى إليهم".[٣]

---

١ المثل السائر ٦٤/٢.

٢ (لسان العرب: بلغ)

٣ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، ص٤٥.

غرض البلاغة:

توخّي الدّقة في انتقاء المفردات والصيغ والأساليب على حسب مقام الكلام ومقاصد قائلة وحال مستمعه.

والغرض من الكلام التعبيرُ عمّا في النفس من مشاعر وأحاسيس بألفاظٍ معبرة عما يريد المتكلّم التعبير عنه.

تأثير البلاغة على الناقد للنص الأدبي، والبلاغة زاد الناقد في عملية فهم النص وتقييمه ونقده وتقويمه بحثا عن جمال تركيبه وصوره وخياله، وجمال البلاغة في كل الفنون نجده في الشعر والنثر على حد سواء؛ فالمقالة والخطبة والقصة والمثل كل ذلك، كالقصيدة لا يخلو من الصورة الجمالية ومراده التأثير في السامع.

<u>الفصاحة والبلاغة</u>

اعلم أنه لا خلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ، ولا يكون بليغا إلا بمجموع الأمرين كليهما فقد صارت البلاغة وصفا عارضا للألفاظ والمعانى كما ترى

وأما الفصاحة فهل تكون من عوارض الألفاظ، أو تكون من عوارض المعانى، أو لمجموعهما؟ فيه مذاهب أربعة:

أولها: أنها من عوارض الألفاظ مجردة لا باعتبار دلالتها على المعانى، وهذا هو الذى يشير إليه كلام ابن الأثير فى كتابه المثل السائر فإنه قال: إنّ الفصاحة مدركة بالسمع، وليس يدرك بحاسة السمع إلا اللفظ، فلهذا كانت مقصورة عليه.

وثانيها: أن الفصاحة من عوارض المعانى دون الألفاظ وهذا هو الذى يرمز إليه ابن الخطيب الرازى فى كتابه نهاية الإيجاز، فإنه زعم أن الفصاحة عبارة عن الدلالات المعنوية

لا غير من غير حاجة إلى اللفظ لا على جهة القصد، ولا على جهة التبعية.

وثالثها: أن الفصاحة عبارة عن الألفاظ باعتبار دلالتها على مسمياتها المعنوية، وهذا شىء حكاه ابن الخطيب فى كتاب النهاية ولم يعزه إلى أحد من علماء البيان. وحاصل مذهبهم أن الفصاحة عبارة عن الأمرين جميعا، فلا هى من أوصاف اللفظ كما زعمه ابن الأثير على الخصوص، ولا هى من أوصاف المعانى على الخصوص كما حكيناه عن ابن الخطيب.

ورابعها: أن تكون الفصاحة مقولة على الأمرين جميعا، فتكون مفيدة لهما جميعا فيكون الأمران جميعا أعنى المعانى والألفاظ من مسمى قولنا: فصاحة، وهذا المذهب يخالف المذهب الثالث، فإن هؤلاء جعلوا اللفظ والمعنى من مدلول لفظ الفصاحة. والذين قبلهم جعلوا اللفظ هو مسمى الفصاحة، لكن اعتبار المعنى على جهة الضم والتبعية لا غير.

فهذا تقرير مذاهب العلماء فى مدلول لفظ الفصاحة، وفائدة إطلاقه.

والمختار عندنا تفصيل نشير إليه، وهو أن الفصاحة من عوارض الألفاظ، لكن ليس بالإضافة إلى مطلق الألفاظ فقط، ولكن بالإضافة إلى دلالتها على معانيها، فتكون الفصاحة عبارة عن الأمرين جميعا مطلق الألفاظ ودلالتها على ما تدل عليه من معانيها المفردة والمركبة، وهذا المذهب هو الذى حكاه ابن الخطيب عن بعض علماء البيان. ويدل على ما قلناه وجوه ثلاثة:

أولها: قوله صلّى الله عليه وسلّم: «إن من البيان لسحرا» والبيان هو الفصاحة، لأن البيان هو الظهور، وذلك لا يستعمل إلا فى الألفاظ، ولا بد من اعتبار دلالتها على معانيها، لأنا لو لم نعتبر ذلك لكانت الألفاظ مما يمجها السمع، وينبو عنها الطبع، فضلا عن أن تكون سحرا. فإذن لا بد من اعتبار الأمرين فى كون الكلام فصيحا، ومراده عليه السلام بقوله «لسحرا» يعنى أنه يحير العقول فى حسنه ورونقه، ودقة معانيه، وعن هذا قال بعضهم:فصاحة المنطق سحر الألباب.

وثانيها: أنهم يقولون فى الوصف كلام فصيح، ومعنى بليغ، ولا يقولون معنى فصيح، فدل ذلك على أن الفصاحة من متعلقات الألفاظ، وأن فصاحته إنما كانت باعتبار ما دل عليه من حسن المعنى ورشاقته. وفى هذا دلالة على وجوب اعتبار الأمرين فى فصيح الكلام كما قلناه.

وثالثها: أنا نراهم فى أساليب كلامهم يفضلون لفظة على لفظة، ويؤثرون كلمة على كلمة، مع اتفاقهما فى المعنى، وما ذاك إلا لأن إحداهما أفصح من الأخرى، فدل ذلك على أن تعلق الفصاحة إنما هو بالألفاظ العذبة، والكلم الطيبة ألا ترى أنهم استحسنوا لفظ الديمة، والمزنة، واستقبحوا لفظ البعاق لما فى المزنة، والديمة، من الرقة واللطافة ولما فى البعاق، من الغلظ والبشاعة. ومما أغرق فى اللذة والسلاسة قوله تعالى فى وصف خروج القطر من السحاب: فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ [النور: ٤٣] فأين هذا من قول امرىء القيس فى هذا المعنى:

فألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العباب المحَّمل

ألقى هذا الحيا ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار ، فشبه نزول المطر به كنزول التاجر اليماني المحمل بألوان الثياب لبيعها.

الغبيط: الهودج على ظهر البعير وهنا هي الصحراء الواسعة المستوية التي يرتفع طرفاها، البعاع : الثقل، **والعباب: كساء من أكسية الصوف ناعم دقيق**.

فانظر ما بين الودق والبعاع فاختصاص الودق بالرقة واللطافة عما تضمنه، البعاع، من الغلظ والبشاعة دلالة ظاهرة على ما قلناه من أن الفصاحة راجعة إلى اللفظ لأجل دلالته على معناه.

فأما من زعم أن الفصاحة متعلقها اللفظ لا غير، فقد أبعد، فإن الالفاظ لا ذوق لها ولا يمكن الإصغاء إلى سماعها إلا لأجل دلالتها على معانيها، فأما إذا خلت عن الدلالة عليها فلا وقع لها بحال، وغالب ظنى أنه لا بد له من اعتبار المعنى، خلا أنه يكون ضمنا وتبعا للألفاظ لا محالة.

وأبعد من هذا من زعم أن متعلق الفصاحة فى المعانى فقط، كما حكيناه عن ابن الخطيب فإن المعانى إنما توصف بالبلاغة، فأما الفصاحة فإنها من صفات الألفاظ كما مر بيانه. وعلى الجملة فإن أراد أنه لا بد من اعتبار الأمرين جميعا، اللفظ والمعنى، على أن إطلاق الفصاحة على أحدهما ويكون الثانى تبعا فالخلاف لفظى، وإن أراد أنّ إطلاق اسم الفصاحة إنما يكون على أحدهما على انفراده، فهو خطأ كما أسلفنا تقريره. فهذا ما أردنا ذكره فيما يخص كل واحد منهما.[1]

تعريفات القدماء لمصطلح البلاغة

أورد الجاحظ في كتاب البيان والتبيين عدد من التعريفات للبلاغة؛ منها تعريف ابن المقفع؛ يقول: "البلاغة: اسم جامع لمعان تجري في وجوه

١ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية، بيروت،٧-٧٢

كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة" [١]فقدم لصفات البلاغة من إيجاز ومراعاة للمقام.

كما أورد تعريف العتابي عندما سئل "ما البلاغة؟ فقال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حُبسة، ولا استعانة فهو بليغ" [٢]، فقد ركز هنا على صفات البليغ.

"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة: قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"٣.

وعرف الرماني البلاغة بأنها: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ."[٤]

وعند أبي هلال العسكري:" سميّت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"، ويقول: "البلاغة كل ما تُبَلِّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنُه في نفسه كتمكُّنِه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرِض حسن"[٥]

---

١ البيان والتبيين، للجاحظ،١/١١٥.
٢ البيان والتبيين، للجاحظ،١/ ١١٣.
٣ البيان والتبيين ٨٨/١.
٤ النكت في اعجاز القرآن، الرماني، ص٧٥.
٥ كتاب الصناعتين، للعسكري، ت: البجاوي، ص١٢.

كما يرى أن أدوات البليغ تكمن في "التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها؛ والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها، ومتخيَّرها، ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام".[1]

ويقول ابن المعتز: "البلاغة هي البلوغ إلى المعنى ولما يطل سفر الكلام"، ويقول الخليل بن أحمد: "البلاغة هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه".

ويذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن اتساق المعنى مع اللفظ يصنع البلاغة؛ يقول: "أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتمّ له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية"[2]

أما الخطيب القزويني تعريف بلاغة الكلام: "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[3]؛ أي: مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب مع فصاحته.

وبلاغة المتكلم عنده: "هي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ".

عناصر البلاغة

لفظ ومعنى وتأليف للألفاظ يمنحها قوة وتأثيرا وحسنا، ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته، وحال السامعين والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفسوسهم، فرب كلمة حسنت في موطن ثم كانت نابية مستكرهة في غيره. وقديما كره الأدباء كلمة "أيضا" وعدوها من ألفاظ العلماء فلم تجر بها أقلامهم في شعر أو نثر حتى ظهر بينهم أبو بكر الشبلي (شاعر عباسي)؛ قال:

---

١ الصناعتين، ص٢٧.

٢ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ص ٣٥.

[3] الإيضاح للخطيب القزويني، ص ٧٢.

رب ورقاءَ هتوفٍ في الضحى ذات شجوٍ صدحت في فنن

ذكرت إلفا ودهرا سالفا فبكت حزنا فهاجت حَزني

فبكائي ربما أرَّقها وبكاها ربما أرقني

ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني

غير أني بالجوى أعرفها وهي "أيضا" بالجوى تعرفني

فوضع "أيضا" في مكان لا يتطلب سواها ولا يتقبل غيرها، وكان لها من الروعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنها البيان.

الورقاء: الحمامة في لونها بياض إلى سواد. والهتوى: كثيرة الصياح. والشجو: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالغناء، والفتن: الغصن، والإلف: الأليف، والأرق: السهر، وأرقها: أسهرها.الجوى: الحرقة وشدة الوجد.

ورب كلام كان في نفسه حسنا خلابا حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه، خرج عن حد البلاغة، وكان غرضا لسهام الناقدين.[1]

ولبيان عناصر الكمال والجمال في الأدب، يقول أحمد حسن الزيات في كتاب دفاع عن البلاغة: إن البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فليست الأحوال المعروضة أو المفروضة إلا انفعالات العواطف في النفس، أو اتجاهات الخواطر في الذهن. وليست مقتضياتها إلا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي إليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف أو في تلك الخواطر التأثير الذي يريد."

ومثل هذه التعريفات عند العرب هناك تعريفات للبلاغة عند علماء الغرب؛ يقول: "ولبلغاء الغرب في البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب

---

١ البلاغة الواضحة، ص١٢.

في إجمال المعنى وبعد الإشارة، قال لاهارب: (البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حق)، وقال سورين: (هي الفكرة الصائبة، ثم الكلمة المناسبة)، وقال لابروبير: (هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس). ولقد تخيلها (سنيك) إلهاً مجهولا في صدر الإنسان.،ومثَّلها القدماء في صورة إله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد، والتمثال على هذا الوضع لا يمثل غير بلاغة الخطيب."

ثم يعلق قائلا: والبلاغة بمعناها الشامل هي ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام، فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة؛ والتأثير في القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة؛ وفي هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع على أكمل صورة.[1]

لا بُدَّ أوّلاً من توافر الأركان الأساسية للكلام البليغ، وهي:

(١) مطابقته لمقتضى حال المخاطب به.

(٢) التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

(٣) خلُوّه من التعقيد اللّفظي، والتعقيد المعنوي.

وبعد توافر هذه الأركان الأساسيّة توجد عناصر كثيرة تُكْسِبُ الكلام ارتقاءً أدبيّاً وتُعْطيه جمالاً وإبداعاً، ورونقاً وحياةً، وقدرةً على التأثير والهيمنة على النفوس والأفكار والقلوب.[2]

واللفظ إما مفرد أو مركب؛ فأما المفرد فعلى أقسام:

القسم الأول: اللّيّن السهل، وتتفاوت في ذوق الأديب درجات هذا القسم، فمن هُلاميّ رجراج، مثل الكلمات الخفيفة التي يستطيع الأطفال الصغار المبتدئون بالنطق أن ينطقوا بها صحيحة سليمة، وهي غالباً تتألّف

---

١ دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، عالم الكتب، ص٣٣-٣٤.

٢ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،١|٢٨.

من الحروف الشفويّة والصوتية، ثم الحروف اللّثويّة والصوتيّة، مثل: "بابا – ماما " وتتدرّج النسبة ارتقاء، مع المحافظة على صفة اللّين والسهولة، ولكن بالنسبة إلى نطق الكبار العادّيين، مثل: "نَسْمَة – بَسْمَة – رَنَا – دَنَا– سما" ومن السهل اللّين في القرآن قول الله تعالى:(الرَّحْمَنُ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ۝ عَلَّمَهُ البَيَانَ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (الرحمن:١–٦)

القسم الثاني: القويّ الجزل، وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحسِّ المرهف درجات هذا القسم، ومن أمثلة القوي الجزل المفردات التالية من سورة (الشمس):

"ضُحاها – جَلاّها – يَغْشاها – طَحَاها – بِطَغْواها – إذا انْبَعَثَ أشْقَاها – فَعَقَروها – فَدَمْدَم عليهم – عُقْباها"، أو غيرها من سور القرآن.

القسم الثالث: الحُوشِيُّ الغريب، وتتفاوت درجات هذا القسم. والحوشي الغريب ما قلّ في العرب استعماله، لثقله على الألسنة، حتى يكاد بعضه يُهمل في الاستعمال عد معظم العرب، مثل المفردات التالية:

الْحَنْطَبَة: بمعنى الشجاعة، والْحَيْزَبُون، والشَّهْرَبَة: بمعنى المرأة العجوز،طَخَا الليل: بمعنى أظلم، النُّقَاخ: وهو الضرب على الرأس بشيء صلب،الْهَبَيَّخُ: وهو الرجل الأحمق، والوادي العظيم، والنهر العظيم، الْقُدْمُوس والْقُدْمُوسَة: وهي الصخرة العظيمة، الْعَقَنْقَسُ والْعَفَنْقَس: هو السيِّىء الخلق.

القسم الرابع: الصعب الجموح، وتتفاوت درجات هذا القسم. ومن الصعب الجموح ماهو حوشي غريب، ولكن ليس كل صعب جموح كذلك، فقد لانت في ألسنة العرب كلمات صعاب، وبقيت مستعملة دارجة بيْن أُدبائهم إلاَّ أنّها صعبة على الألسنة لها جُموح ونفور، مثل الكلمات التالية:

غَضَنْفر: من أسماء الأسد، مُسْتَشْزِر: أي مفتول، عَقْعَقٌ: اسم لطير.[1]

آلة البلاغة

تكمن في أمور أهمها عند الزيات (اللغة والطبيعة والنفس)، يقول: "آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب، والمراد بالطبع ملّكات النفس الأربع التي لابد من وجودها في البليغ، ولا حيلة في إيجادها لغير الخالق، وهي الذهن الثاقب، والخيال الخصب، والعاطفة القوية، والأذن الموسيقية."

والاطلاع الواسع والمعرفة الشاملة التي هي العلم، يقول:"آلة البلاغة الأخرى هي العلم بمعناه الأعم، أو المعرفة بمدلولها الأشمل، فالكاتب، إذا كان ناقص العلم أو قليل الإطلاع، يدركه الجفاف والنضوب فلا يكون في آخر أمره إلا سارد ألفاظ ومقطّع جمل. ذلك أن معارف الكاتب هي منابع إنتاجه. وألوان المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة. والمعارف لا تستفاد إلا بمواصلة الدرس وإدمان القراءة."

وللغة أهمية كبيرة فهي أداة الكلام والكتابة، يقول: "أما اللغة فلأنها أداة القول والكتابة، وللثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل مثقف؛ ولكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة: يتضلع من مادتها، ويتعمق في فقهها، ويتبسط في أدبها، ويحيط بعلومها"

ثم يكشف عن دور الذوق كآلية مهمة من آليات البلاغة: "ولكل لغة من اللغات المتمدنة عبقرية تستكنّ في طرق الأداء وتنوع الصور وتلاؤم الألفاظ؛ وهذه العبقرية لا تدرَك إلا بالذوق؛ والذوق لا يُعَلَّم، وإنما يكتسب بمخالطة الصفوة المختارة من رجال الأدب، ومطالعة الروائع العالمية

---

١ انظر/ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ١/٣٠.

لعباقرة الفن. واطلاع الكاتب على النماذج الرفيعة من البيان الخالد يرهف ذوقه، ويوسع أُفقه، ويريِه كيف تؤدى المعاني الدقيقة، وتحيي الكلمات الميتة."[1]

مخاطبة المتلقي

خطاب المتلقي بما يناسبه على حسب الغرض؛ ومن هذه الأغراض:

– عدم مواجهة المخاطبين بما يراد إعلامهم به لدواع تربوية، أو لدواع نفسية، كعدم المواجهة بالتكليف، وعدم المواجهة بالنّقْد، وعدم المواجهة بالعتاب، وعدم المواجهة بالتلويم، وغير ذلك.

– إرضاء نفس من يخاطب به، إذ يشعر بأنّه محترم مقدّر مِنْ قِبَل من يخاطبه، فهو في نظره من مستوى الأذكياء وكبراء القوم الذي يخاطبون بإشارات الكلام وكناياته، ولا يحتاجون إلى صريح القول.

– إخفاء المراد على جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالرمز، لأغراض سياسيّة، أو عسكريّة أو تربويّة، أو نحوها.

– التوصّل عن طريق اللّوازم العقلية إلى معان قد لا يكن لها ألفاظ تدلّ عليها دلالة مباشرة.

– تزيين الكلام ليكن أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

– وقد يكون الأسلوب غير المباشر مقرِّباً للفكرة الغامضة، أو مقدِّماً لها مقترنة بحُجَّتِها المُقْنعة بها.

– إمكان التهرّب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادته تسوء المخاطب به، أو تسوء غيره من أنداده أو حسّاده أو غيرهم.[2]

---

١ دفاع عن البلاغة، ص٤٣ وما بعدها.

٢ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٣٢/١.

جماليات_المعنى

تتعدد عناصر الجمال في المعاني ويجب على المرسل أن يراعي ما يأتي:

أوّلا: تناسُق الأفكار وترابطها بوشائجها المنطقيّة دون إعنات للفكر، ثمّ تكاملها ولو مع طيّ بعض العناصر التي يمكن أنْ تفهم ذهناً، ولا يشترط التعبير عن وشائج الترابط، بل ربّما يكون طيّ ذلك أحلى وأكثر جمالاً أدبيًّاً.

ثانيا: الانتقال من الجذور والأصول في الأفكار إلى الفروع الكبرى فالصغرى فالأوراق والثِّمار. أوْ مِنَ الفروع إلى الأصول. أمّا الخلط من غير ترابط منطقي فهو قبيح تنفر منه الأذهان، لأنَّها لا تستطيع أن تُجريه في جداولها المنطقيّة الفطرية، ولأنّه يتنافى مع أُسلوب الطبيعة المنظَّمة بأبدع نظام.

ثالثا: محاكاة الواقع بتصوير فنِّيٍّ يُبْرِزُ الحركة والحياة والمشاعر، ويعبِّر عن مختلف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة.

رابعا: الصدق في التعبير عن الحقيقة، أو عن المشاعر والأحاسيس، أو عن الآمال والرغائب، أو عمّا يسبح فيه الخيا متأثّراً بمطالب النفوس، وشهواتها، ومطامحها.

خامسا: ما تشتمل عليه المعاني ممّا يحرّك في النّاس المشاعر الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، والعواطف الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، أو يرضي شهوات النفوس.

سادسا: ما يُعجب الأذهان من إشراقات ذكاء، وأفكار جديدة مبتكرة، بشرط أنْ لا تكون قبيحة بطبيعتها.

سابعا: ما يسرُّ الخيال ويعجبه ويُمْتِعُه ممّا يرضي الرغبات النفسيّة التي يتمنّاها الإنسان ويعجز عن الوصول إليها وتحقيقها.[1]

من عناصر الجمال الأدبي في الكلام ملاءمة أسلوبه البياني للأمور التالية:

معرفة الهدف العام من الكلام.

إدراك المضمون الفكري في الموضوع العامّ الذي يجري فيه الكلام، وفي الفكرة الخاصّة التي يَتَحَدَّث عنها.

الإلمام بوضع المخاطب وحالته الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعية.

ثقافة المتكلم عن الْمُنَاخ النفسيّ العام الذي يُلقى فيه، أو يوجَّه له، فالمناخات النفسيّة كثيرة، ولكلٍّ منها أسلوب بياني يلائمه.

وللتوصّل إلى الملاءمة المطلوبة التي هي عنصر مهمٌّ جداً من عناصر الجمال الأدبي لا بدّ من ملاحظة الأمور التالية بعناية ودقّة:

– ملاحظة حال المخاطبين أو الّذين يُوَجَّه لهم الكلام وذلك بصفة عامّة. ويدخل في هذا ملاحظة بيئتهم العامّة، ومفاهيمهم السائدة بينهم.

– ملاحظة الحالة النّفسية والفكريّة والاجتماعية التي يكون عليها المخاطبون بصفة عامّة.

ويدخل في هذا ملاحظة حالات السلم والحرب والأمن والخوف، وسعة الرزق والجوع، والنّصر والهزيمة، والإيمان الكُفر والنِّفاق، و الطمع واليأس، والمسرّة والحُزْن، والصفاء والكَدَر، ونحو ذلك من الأحوال النفسيّة الخاصّة، التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

---

[1] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٣٢/١

ويدخل في هذا أيضاً ملاحظة حالات الذّكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكريّة التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أخيراً ملاحظة الحالات الاجتماعيّة، كالبداوة والتحضُّر، والرفعة والضِّعة، والقوَّة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

– ملاحظة الظرفين الزماني والمكاني اللَّذين يُقَالُ فيهما أو يُعدُّ لهما لكلام.

فمن الأساليب البيانيّة ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانيّة أو المكانيّة، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفاً آخر.

إنّ ما يلائم في مواسم الأعياد، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مكان الفرح، لا يلائم في كان التَّرَح، وما يلائم في مواطن تأدية النُّسُك، قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وكذلك العكس، وقس على هذه المتخالفات.

البيان القرآني

مفجِّر الدرس البلاغي

البيان القرآني مفجِّر الدرس البلاغي

قال الثَّعَالَبِيُّ: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز والاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء ويفطن لكفاية الإيجاز، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام.[1]

وقد اهتمت مؤلفات كثيرة بالبيان القرآني الذي أدي إلى تطور علوم البلاغة من هذه المؤلفات:

١-مجاز القرآن؛ لأبي عبيدة معمر بن المثنّى (المتوفي سنة ٢١٠هـ)

وضع كتابه في مجاز القرآن على إثر حادثة تناقلها الرواة كانت في مجلس الفضل بن الربيع والي البصرة عام ١٨٨هـ، قال أبو عبيدة: دخل رجل في زي الكتَّاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له :أتعرف هذا؟ قال لا :قال: هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقال لي :إني كنت إليك مشتاقا، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها، فقلت هات، قال : قال الله عز وجل: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) (الصافات:٦٥)، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف .فقلت :إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز.

---

١ الإعجاز والإيجاز ٢/١.

وأرجع سبب تأليفه في مقدمة كتابه إلى أمرين:

"الأول: أن الصحابة ومن بعدهم عرب يفهمون الخطاب العربي، فلم يحتاجوا إلى أن يسألوا عنه، بخلاف من جاء بعدهم ممن هو في حاجة إلى معرفة هذا الخطاب العربي والثاني: الرد على من زعم أن في القرآن غير اللفظ العربي(المعرَّب).[1]

وهو يمثل التيار اللغوي في التفسير، مع وجود بعض آثار البحث البياني –الذي اتسع بعد ذلك– وهو مهم من هذه الناحية، لأنه يحدد أيضاً بدء الدراسات النقدية من دراسات القرآن نفسها.

وحملت كتب أخرى لفظ المجاز متأثرة بكتاب أبي عبيدة؛ منها:

– مجازات القرآن لمحمد بن المستنير المعروف بقُطرب، ومجاز القرآن، لأبي زكريا الفرّاء، ومجاز الكلام وتصاريفه، لثعلب، أبي العباس أحمد بن يحيى، وغيرها.

٢–معاني القرآن للفرّاء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ)

وهو كتاب تفسير وإعراب تعرض فيه لبعض القضايا البلاغية؛ كالحذف والإيجاز والتكرار والتعريض وكذلك موسيقى الفواصل القرآنية.

٣–تأويل مُشْكِل القرآن لابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦ هـ)

اهتم كثيرا بموضوع المجاز مفردا له بابا مستقلّا يثبت فيه وجوده في اللغة والقرآن، كما ذكر فيه عددا من قضايا البلاغة الأخرى كالتمثيل، والتقديم والتأخير، والقلب، والحذف، والتكرار، والإظهار، والتعريض، والالتفات وغيرها.

٤– النكت في إعجاز القرآن للرّماني (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ)

---

١ مقدمة كتاب مجاز القرآن ص٤.

يقول: والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان" وقد حشد الأمثلة دون التعرض للمصطلح البلاغي.

وكان يرى أن الشعراء يتفاضلون في باب التشبيه، ويرى أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة نظرا لأثرها النفسي في المتلقّي، وقد فرق بين الفواصل والسجع مفضلا مصطلح الفواصل مع القرآن الكريم لأنّها تابعة للمعاني أما السجع فالمعاني تابعة له.

٥- بيان إعجاز القرآن للخطّابي (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ)

والكلام عنده "إنّما يقوم بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا، وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه"، واهتم بفصاحة الكلمة واصفا إياها بالفصاحة والبعد عن الغرابة.

٦- إعجاز القرآن للباقلّاني (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ)

براعة نظم القرآن عنده ليست لغيره من كلام العرب، يقول: "والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التّصنع له، والتوصل إليه بحال" وقال إن كلامه: "خارج عن الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصيغة المتكلّفة" عقد فصلا للبديع أثبت فيه أن ضروب البديع الرائع عند العرب مقصّرة عن بلوغ ضروبه الواردة في محكم آياته، و عقد فصلين لنفي وجود الشعر والسّجع في القرآن الكريم، كما عرض لفنون السّجع والترصيع، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والإيجاز، والإطناب، والحقيقة والمجاز وغيرها.

٧- إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبّار (المتوفى سنة ٤١٥ هـ)

عنوان كتابه يشبه كتاب الباقلاني الذي ذاعت شهرته في بيان إعجاز القرآن، وهو معاصر للباقلاني.

تعرض الباقلاني للفصاحة وهي تعتمد عنده على جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وقال: "لا معتبر في الفصاحة بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه؛ لأن كل ضرب من ذلك ربما كان أدخل في الفصاحة في بعض المواضع من صاحبه." حيث يرى أن الأصل في نسق الكلام وحسن نظمه لا الفصاحة فحسب، وتحدث عن التكرار وأنواعه، والتطويل والإيجاز، وحسم الجدل في بلاغة الإطناب مقابل الإيجاز فقال: " وإنما يعد التطويل عيبا في المواضع التي يمكن الإيجاز، ويغني عن التطويل فيها. فأما إذا كان الإيجاز متعذرا أو ممكنا ولا يقع به المعنى، ولا يسدّ مسدّ التطويل، فالتطويل هو الأبلغ في الفصاحة".

٨- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ)

قدم نظرية مهمة لا يزال صداها في الدرس البلاغي العربي والغربي عرفت بنظرية النظم، يقول: " الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" وعرض لقضايا بلاغية منها: التقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتنكير، والاستعارة، والكناية، والتصريح، والإيجاز، والتجنيس، والسجع وغيرها.

وهناك كتب أخرى مهمة في الدرس البلاغي وكانت مقدمة لنشوء علوم البلاغة؛ منها.

الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي (ت ٤٨٥هـ).

الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ).

بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ).

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (ت٧٥٩ هـ).

معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (ت ٩١١ هـ).

مؤلفات العرب في الإعجاز

ويعرض مصطفى صادق الرافعي لمؤلفات العرب في الإعجاز فيقول: قد رأيتَ أن أقوال الأولين في إعجاز القرآن وأدلتهم عليه مما لا يَحتمل البسطَ والاتساع إلى ما تُفْرد له الكتبُ وتوضع فيه الدواوين.

وتلك آراء كانوا يتوارَدون في المناظرة عليها ويتجارَؤن الكلامَ في تصويبها والاحتجاج له في مجامع سمرهم وحلقات دروسهم، إذ كان الناس إجماعاً على القول بالإعجاز والمشايعة فيه وكانت الكلمة لا تزال متخففة فيهم عن العرب، فهم على علم مذكور من أوليتهم وسلفهم الذين أعزهم القرآن الكريم، وعلى عيان حاضر من فصحاء البادية الذين يختلفون إليهم، ومن أهل العربية وطائفة الرواة وهذا كله مما يتسند إليه الطبع وإن كان طبع العامة الذين فسدت لغتُهم والتَوَت ألسنتهم.

ومر الناس على ذلك إلى أوائل المائة الثالثة، فلما فشت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة؛ وخيف أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد أو العادة، وعلى الحُشْوَة من أهل الكلام الذين لا رسوخَ لهم في اللغة ولا سَليقةَ لهم في الفصاحة ولا عرق لهم في البيان، مسَّت الحاجة إلى بسط القول في فنون من فصاحته ونظمه ووجهِ تأليف الكلام فيه، فصنفَ أديبنا الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كتابه (نظم القرآن) وهو فيما ارتقى إليه

بحثنا أولُ كتاب أفراد لبعض القول في الإعجاز أو فيما يهيئ القولَ به، وقد غض منه الباقلاني بقوله: إنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله؛ ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى (أي الإبانة عن وجه المعجزة) وذهب عن الباقلاني – رحمه الله – أن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه في أوائل القرن الثالث، غير الذي دعاهُ هو إلى التصنيف في أواخر القرن الرابع، فلم يحاول الجاحظ أكثر من توكيظ القول في الفصاحة والكشف عنها على ما بقي بالابتداء في هذا المعنى، إذ كان هو الذي ابتدأ التأليف فيه ولم تكن علوم البلاغة قد وُضعت بعد.بَيدَ أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف، إنما هو فيما نعلم كتاب (إعجاز القرآن) لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفي سنة ٣٠٦ هـ، وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه (المعتضد)، وشرحاً آخر أصغر منه. ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي، ثم وضع أبو عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٢ هـ كتابه في الإعجاز، فرفع بذلك درجة ثالثة، وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن) الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة، الغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كان يعاصره، وسنشير إليه، وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما، فكأنه هو ابتدأ بالتأليف في الإعجاز بما بسط في كتابه واتسع، وفي ذلك ما يثبت لنا أن عهد هذا التأليف لا يُرَد في نشأته إلى غير الجاحظ.

على أن كتاب الباقلاني وإن كان فيه الجيِّد الكثير، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنَّع له، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم

يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضَهُ من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ: " لم يكشف عما يَلتبِس في أكثر هذا المعنى ".

فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام، وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنسٍ من القوم، ونوع وآخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر، ذهبت بأكثره وغمرت جملته، وعدها في محاسنه وهي من عيوبه.

وكان الباقلاني – رحمه الله وأثابه – واسعَ الحيلة في العبارة؛ مبسوط اللسان إلى مدى بعيد، يذهب في ذلك مذهب الجاحظ ومذهب مقلده ابن العميد، على بصرٍ وتمكن وحسنِ تصرف، فجاء كتابه وكأنه في غير ما وضع له، لما فيه من الإغراق في الحشد، والمبالغة في الاستعانة، والاستراحة إلى النقل، إذ كان أكبر غرضه في هذا الكتاب أن " ينبه على الطريقة ويدل على الوجه، ويَهدي إلى الحجة " وهذه ثلاثة لو بُسط لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب لوسعتها، وهي مع ذلك حشوٌ ووَصل.

على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز، واحتمل المؤنة فيه بجملتها من الكلام والعربية والبيان والنقد ووفى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التي أوقع الكلام عليها، حتى عدوه الكتاب وحده؛ لا يشرِك العلماء معه كتاباً آخر في خطره ومنزلته وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سَردِه، فانظر ما عسى أن يكون غيره مما سبقه أو تلاه.

وما زاد الباقلاني – رحمه الله – على أن ضمن كتابه روح عصره، وعلى أن جعله في هذا الباب كالمستحِث للخواطر الوانية والهمم المتثاقلة في أهل التحصيل والاستيعاب الذين لم يذهبوا عن معرفة الأدب، ولم يَغفلوا عن وجه اللسان ولم ينقطعوا دون محاسن الكلام وعيوبه، ولم يضلوا في

مذاهبه وفنونه، حتى قال: إن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها، والشادي فيها كالبائن منها، وقد كانت علوم البلاغة لم تهذب لعهده، ولم يبلغ منها الاستنباط العلمي، ولم تجرد فيها الأمهات والأصول: ككتب عبد القاهر ومن جاء بعده، فبسط الرجل من ذلك شيئاً، وأجمل شيئاً؛ وهذب شيئاً ونحا في الانتقاد منحى الذين سبقوه من العلماء بالشعر وأهل الموازنة بين الشعراء، وكانت تلك العصور بهم حفيلة.

وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه في عصره، بيدَ أن القرآن كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز ونحن قد قلنا في غير الجهات التي كتبت فيها كل من قبلنا، وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به؛ إن ذلك على الله يسير.

وممن ألَّفوا في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الإمام الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ، وفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، والأديب البليغ ابن أبي الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ، والزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ هـ وهي كتب بعضها من بعض.

ومن أعجب ما رأيناه أن لابن سراقة كتاباً في الإعجاز لامن حيث الأعداد ذكر فيه من واحد إلى ألوف " وهي عبارة مقتضبة رأيناها في (كشف الظنون) ولم يكشف لنا عن معناها، فلا ندري أبلغت وجوه الإعجاز في كتابه ألوفاً، أم هذه الألوف غير معجزة، أو هي يحصي ألوفاً من آيات القرآن والقرآن كله معجزة؛ على أننا رأينا في بعض الكتب نقلاً عن كتاب ابن سراقة هذا ما يأتي:

"اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره! .

قلنا: ولعل المؤلف بلغ في كتابه نهاية هذا الحساب العشري؛ على أن كتابه لو كان مما ينفع الناس لمكث في الأرض.[1]

دور اللغويين في نشأة علم البلاغة

لم تكن البلاغة منفصلة عن علوم اللغة وبخاصة النحو الذي وضع لضبط اللسان العربي وسلامته عن الوقوع في اللحن الذي يذهب بالمعنى المراد بعيدا عما يقصد المتكلم ولا يلقى القبول لدى السامع العالم باللغة الذي ينتظر السلامة اللغوية قبل الانتقال إلى حسن الأسلوب، وعلوم البلاغة جاءت متناثرة في كتب اللغويين من النحاة لذا يمكن القول إن "النحاة هم أصحاب الفضل الأول في نشأة البلاغة، على الرغم من أنها كانت في البداية نظراتٍ متناثرة هنا وهناك ضمن مباحثهم النحوية، ثم أُتيحت لمن أعقبهم أن يصوغَ من هذه النظرات العابرة قواعدَ بلاغية ذات صيغة علمية[2]"

ويرى ابن الأثير أن العلمان يكملان المعنى للسامع ، وأن النحو ينظر في الدلالة العامة أما البلاغي فينظر في الدلالة الخاصة للألفظ والمعاني، فعالم البلاغة "والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان – البلاغي – ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي الدلالة الخاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويعلم

---

١ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى، ص١٠٥-١٠٨.

٢ أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حسين، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط: ٢، ١٩٨٦م، ص ٧.

مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة، ومن ها هنا غَلَطَ مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية، وتبيين مواضع الإعراب منها، دون شرح ما تضمَّنته من أسرار الفصاحة والبلاغة[1]"

من علماء اللغة الذين أسهموا في نشأة البلاغة:

١- الخليل بن أحمد الفراهيدي

عالم لغة وهو شيخ سيبويه صاحب الكتاب في النحو، وهو واضع علم عروض الشعر، وضع معجم العين وهو أول معجم عربي جمع الألفاظ العربية ورتبها ب طريقة فريدة من جهة مخارج الأصوات.

وله اسهامات في نشأة علم البلاغة، يقول عن البلاغة: "كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقًا، ولتلك الحالة وقفًا، وآخر كلامك لأوله مشابهًا، وموارده لمصادره موازنًا، فافْعَلْ واحرص أن تكون لكلامك متهمًا وإن ظرُف، ولنظامك مستريبًا وإن لطُف، بمواتاة آلتك لك، وتصرُّف إرادتك معك[2]"

٢- سيبويه

من العلماء الذين بذلوا جهودًا عظيمة في سبيل علم العربية عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، إمام النُّحاة، عاش في إيران بين عامَي ٧٦٠ وعام ٧٦٩ للميلاد، ويعود له الفضل في تبسيط وتفصيل علم النحو، ولم يزل أهل العلم يفضّلون كتاب سيبويه على غيره لما فيه من إثراءٍ وبيان لعلمِ اللغة.

---

[1] المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير، دار نهضة مصر،ص٣٧.

[2] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية،ص٣٤٤.

من أشهر كتب سيبويه ما سبق ذكره "كتاب سيبويه"، الذي عدّه العلماء مصدرًا هامًّا من مصادر اللغة، واعتمد عليه العديد من العلماء فيما بعد في تطوير علوم اللغة وعلى وجه الخصوص علم النحو والصرف، وقد قسّمه إلى قسمين، القسم الأول في النحو وما يتفرع عنه، والقسم الثاني في الصرف وما يتفرع عنه، أدهشَ الكتاب تلامذة سيبويه بتصنيفه وترتيبه وتبويبه وأمثلته، فاشتهر ذِكره في البلدان.[1]

وله كلام عن معنى الجملة والكلام حسن في بابه؛ يقول: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمسِ وسآتيك غدا، وأما المحال، فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس".

فالكلام يكون مستقيما أو غير مستقيم من جهة تركيبه، في حين أن المطابقة مع الواقع، هي معيار صدقه أو كذبه، أو استحالته، هذا يعني أن التركيب، أي وضع المفردات في مواضعها في الجملة، يتعلق به حسن الكلام وسلامته، وليس الصدق أو التناقض فيه.

٣- أبو العباس المُبَرَّد (285هـ)

من أعلام الفكر اللغوي وله كتاب المقتضب في النحو، وكتاب الكامل في اللغة والأدب من الكتب المهمة في هذا المجال ؛ قال عنه المازني: (أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه)، ولد المبرد بالبصرة، ولقب بالمبرد قيل: لحسن

---

١ سيبويه عمرو بن عثمان ، كتاب سيبويه، ص ٥ – ٧ .

وجهه، وقيل: لدقته وحسن جوابه، ونسبه بعضهم إلى البردة تهكما، وذلك غيرة وحسدا.

وهو عبارة عن رسالة ردَّ فيها على رسالة بعثها إليه أحمد بن الواثق سأله فيها عن: "أي البلاغتين أبلغ: أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب، والكلام المنثور والسجع؟ وأيتهما عندك – أعزك الله – أبلغ؟[1]"

فرد أبو العباس عليه قائلا: "إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحُسْنُ النظم؛ حتى تكون الكلمة مقاربة لأختها، ومعاضِدةً شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول[2]" وعقد موازنة بين الشعر والنثر مفضلا الشعر لكنه في رحلته هذه تعرض لأفكار صارت بعد ذلك من أسس الفكر البلاغي منها: مبدأ الاختيار للألفاظ وعلاقتها بالمعاني، وحسن النظم، وكذلك تحدث عن الإيجاز، وقد تحدث عن قضايا بلاغية مهمة منها: أضرب الخبر وعن التشبيه والكناية وغيرهم.

٤- أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢)

من أعلام اللغة له مؤلفات كثيرة أشهرها الخصائص ولابن جنى دور في نشأت البلاغة فقد عرض لفنون بلاغية منها والإيجاز والإطناب والمساواة، والاعتراض، والتكرار، والتوكيد، والالتفات، ونقض المراتب، والتقديم والتأخير، والحذف.

---

[1] البلاغة، أبو العباس المبرد، تحقيق: رمضان عبدالتواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: ٢، ١٩٨٥، ص٨٠

[2] البلاغة للمبرد ص٨١

وقد خالف الجاحظ الذي جعل الدلالات خمسة هي: اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة، فالدلات عنده: "هي اللفظية، والصناعية، والمعنوية.

مراتبها : أقوى هذه الدلالات هي اللفظية، ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية ومن ذلك :جميع الأفعال ففي كل واحد منها الأدلة الثلاثة.

وذلك لأنك حين تسمع (ضرب) تعرف حدثه وزمانه، ثم تنظر فيما بعد، فتقول، هذا فعل ولابد له من فاعل، فليت شعري من هو؟ وما هو؟ فتبحث حينئذ، إلى أن تعلم الفاعل من هو؟ وما حاله من موضع آخر، لا من مسموع ضرب.[1]

فالدلالات عند ابن جنى هي : اللفظية، والصناعية، والمعنوية وهو يمثل لها بجميع الأفعال :فدلالة الفعل على الحدث – أي المصدر – في رأيه – هي اللفظية؛ ودلالته على زمانه هي :الصناعية، ودلالة معناه على فاعله، هي المعنوية.

غير أنه وجد أن الدلالة المعنوية لاحقة بعلوم الاستدلال، لأنك حين تسمع (ضرب) تعرف حدثه وزمانه، ثم تفكر بعد ذلك فيمن وقع منه الضرب من موضع آخر، لا من مسموع الضرب.

ومن هنا تجد :أن الدلالة اللفظية، غير الدلالة المعنوية؛ وهي التي يسميها عبد القاهر، الدلالة العقلية، لأن طريقها هو العقل[2].

---

[1] الخصائص لابن جنى، عالم الكتب بيروت، ١٠١/٣.

[2] خصائص النظم في «خصائص العربية» لابن جني، حسن إسماعيل عبد الرازق، ص١٤٤

تطور الدرس البلاغي وجهود العلماء فيه

عرف العرب قبل الإسلام(العصر الجاهلي) بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقد بلغوا في الجاهلية درجة رفيعة منها ، وقد صور القرآن ذلك في آيات كثيرة ، ووضح القرآن شدة قوتهم في الجدال والحجاج ، قال تعالي : (ما ضربوه لك إلا جدلا. بل هم قوم خصمون)

ومن أكبر الدلائل علي أنهم بلغو في البلاغة درجة عالية أن كانت الرسول صلي الله عليه وسلم وحجة الدالة علي نبوته القرآن ، حيث دعاهم إلي معارضته ، وتحداهم بأن يأتوا مثل بلاغته الباهرة ، وهي بلا شك تدل بوضوح علي تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة وعلي بصرهم بتمييز أقدار المعاني والألفاظ وتبيين مايجري فيها من جودة الأفهام .

لم يزل العرب منذ جاهليتهم الأولي أرباب فصاحة وبلاغة وبيان، وكما كانت العرب تتكلم بالكلام المستقيم المعرب بلا لحن ولا اضطراب ولافساد ، وذلك أن توضح قواعد النحو وإعراب الكلم ، كذلك تتكلم بالكلام الفصيح البليغ ، ولما توضع قواعد البلاغة وطرق الفصاحة والبيان.

ولم تقسم البلاغة وقتئذ إلي علوم البلاغة وكان يطلق عليها جميعا اسم البديع ، أوبيان ، أو الفصاحة والبلاغة ، دون تمييز ، وكانت ترد في الشعر والنثر ناصعة صافية وبل تكلف ولا تصنع ، فكان لها أثرها في إبراز المعني ، وإظهار جماله وحسنه.

قد أجمع الباحثون في تاريخ البلاغة العربية لم تنشأ مكتملة الأبواب والمباحث وإنما نشأت – شأن كل علم في بدايته – مجرد أفكار وملاحظات متناثرة علي هامش العلوم العربية والإسلامية الأخري التي سبقتها إلي الوجود والتي لم تكن بدورها قد تبلورت علي نحو نهائي.

لقد كانت البلاغة في القرون الغابرة والعهود المندثرة لاتخرج عن كونها مجرد مهارات للإبانة والإفصاح عما يجيش في نفس المتكلم من معان ، بحيث يتم توصيلها إلي نفس السامع علي نحو محكم محسن، يبرهن علي ذكاء المتكلم وإدراكه لمتطلبات الموقف ، بالإضافة إلي مؤثرات شخصية أخري ، تتعلق بشمائل المتكلم وسنه وسمته ، وجماله وطول صمته يقول عبد المتعالي الصعيدي : "إن القبة الحمراء التي كانت تضرب النابغة الذبياني بسوق عكاظ في العصر الجاهلي ليجلس تحتها ، ويأتي إليه الشعراء ، ويعرض عليه كل منهم شعره ليمز هو بين الحسن الشعر ورديئه ، ويختار أفضله لتدل دلالته واضحة علي أن هناك مقاييس معينة كان يختار وفقها أفضل الشعر ، وهذا دليل ‘لي أن العرب في الجاهلية قد عرفو البلاغة ، ولكن البلاغة الفطرية البسيطة البعيدة عن التقعيد والتعقيد

ولابد من الإشارة إلي أن البلاغة في بدايتها أطلق عليها اسم البديع ومن هذ المطلق أطلق إبن المعتز علي كتابه اسم البديع بالرغم من أنه تناول فيه مختلف الوان البلاغة من استعارة ، وتشبيه ، وكناية ، وتعريض، بالإضافة إلي الوان البديع ، وقد أطلق عليها اسم البيان ، ومن البلاغيين الذين أطلقوا عليها هذ الإسم "ابن وهب صاحب كتاب : البرهان في وجوه البيان ، وضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب : المثل السائر.

والبلاغيون أنفسهم قد أقروا هذه التسمية بقولهم : " إن وجه تسمية الجميع علم البيان يرجع إلي أن معني البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ولاشك أم العلوم الثلاثة – المعاني والبيان والبديع – لها تعلق بالكلام الفصيح المذكور

ومن أوائل العلماء الذين بحثوا في البلاغة وكتبوا مايتعلق بها في القرن الثالث الهجري أبو عبيدة معمر بن المثني (٢٠٦هـ) وكان من أئمة

الأدب والنقد ، الذي حلل في كتابه (مجاز القرآن) بلاغة الكثير من آيات القرآن الكريم.

ثم جاء الجاحظ (٢٢٥هـ) الذي جمع في كتابه (البيان والتبيان) الكثير من البلاغات العرب وتحديدهم لمعني البلاغة والفصاحة ، إلا أن تناوله للبلاغة كان بسيطا ، وغير منظم ولا معقدا ومن المسائل التي تناولها :

ما تصح به مخارج الحروف ثم عيوبها التي سببها اللسان أو الأسنان أو ما قد يصيب الفم من التشوه والكلام علي سلامة اللغة، والصلة بين الألفاظ والعيوب الناجمة من تنافر الحروف، والكلام عن الجملة والعلاقة بين المعني واللفظ ثم علي الوضوح والإيجاز والإطناب والملائمة بين الخطبة وموضوعها، و الكلام عن هيئة الخطيب وإشارات.

ثم جاء بعده عبدالله بن المعتز (٢٩٦هـ) الخليفة العباسي وألف كتابه (البديع) فجعل للبديع خمسة أنواع هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ورد الأعجاز علي ماتقدمها ، والمذهب الكلامي ، وجعل محاسن الكلام في الشعر ثلاثة عشرة : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بمايشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذييراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض ، والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه في القوافي وحسن الإبتداء ، وقد ألفه ليبين أن المحدثين لم يخترعوا البديع وإنما وجد عند العرب منذ القديم في العصر الجاهلي وفي القرآن الكريم ، والعصر الإسلامي.

ثم جاء بعده قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) فألف كتابه (نقد الشعر) وأشار إلي أنه قد ألفه ليكمل النقص في أقسام البيان الذي لاحظه في كتاب الجاحظ (البيان والتبيين).

وبعده ظهرت دراسات بلاغية لبعض المتكلمين أولهم علي بن عيسي الرماني (٣٨٦هـ) أحد أعلام المعتزلة في عصره والذي ألف كتاب (النكت في إعجاز القرآن) وقد كتب رسالته هذه جوابا عن سؤال أحدهم وقد طلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل في الحجاج.

ومن دراسات المتكلمين في البلاغة دراسة أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٦هـ) في كتابه إعجاز القرآن ، وهو من أعلام المتكلمين في عصره ، أفرد في كتابه هذا جزء تحدث فيه عن البديع ، وتحدث في هذ القسم عن الاستعارة، والإرداف، والمماثلة، وهو يتفق فيها مع العسكري في التسمية والمطابقة أخذ إياها عن ابن المعتز.

ومن دراسات القرن الثالث الهجري في البلاغة ، دراسة محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي الأصبهاني (ت٣٢٢هـ) الذي كتابه (عيار الشعر) وتحدث فيه عن صناعة الشعر والميزان الذي تقيس فيه بلاغته.

وفي القرن الرابع الهجري قام البلاغي أبوهلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) بتأليف كتاب الصنعاتين، وقصد بالصناعتين النثر والشعر، وتناول في كتابه هذا السجع والإزدواج وأدخل فيهما فواصل القرآن خلافا للرماني والباقلاني.

ثم جاء ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٦هـ) وألف كتاب (العمدة في صناعة الشعر ونقده) جعله في مائة باب جمع به كل ما قدمه البلاغيون من قبله من البيان والبديع، والمسائل الجديد التي قدمها للبلاغة في باب البديع وهي : نفي الشيء بإيجابه ، وقال عنه إنه ضرب من المبالغة ، الاطراد، أي " أن تطرد أسماء أباء الممدوح من غير كلفة؛ كقول الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ثم جاء ابن سنان الخفاجي (ت ٤٧١هـ) وألف كتابه (سر الفصاحة) وقد فصل في كتابه هذ الحديث عن الفصاحة فبدأ حديثه عنها ببيان الفرق بينهما وبين البلاغة ، وجعل الفصاحة " خاصة بالألفاظ بينما جعل البلاغة عامة بالألفاظ والمعاني ، وبذلك كان كل كلام بليغ فصيحا ، ولم يكن كل فصيح بليغا ، وقسم الفصاحة إلي فصاحة الكلمة المفردة فذكر شروط فصاحتها ، وفصاحة الكلام فتحدث عن شروطه.

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ووضع نظريتي علم المعاني، وعلم البيان بشكل منظم وواف، والجدير بالذكر أن هذين العلمين لم يطرحا بشكل نظرية محددة الجوانب إلا علي يديه وقد عرض الأولي في: دلائل الإعجاز ، والثانية في أسرار البلاغة ، وكان بحثه لهذين العلمين بحثا علميا ، ونظرته فنية.

ونراه يقول في موضع من كتابه (أسرار البلاغة) : " وأما التطبيق و الاستعارة وسائر أقسام البديع " فكأنما يعد الاستعارة قسما من أقسام البديع فقد كان يري علوم البلاغة علما واحدا يتشعب أبحاثه إلي أن جاء الزمخشري (ت٥٣٨هـ) وتناول في تفسيره (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) جوانب البلاغة ، وقيل إنه أول من ميز بين علمي المعاني والبيان ، واكتمل عنده هذان علمان ، فلم يكن يعده علما قائما بذاته.

وظهر السكاكي (٥٥٥هـ-٦٢٦هـ) الذي ألف كتابه (مفتاح العلوم) وتحدث في القسم الثالث منه علم المعاني وعلم البيان ، وملحقاتها من الفصاحة والبلاغة ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، التي تقصد لتحسين الكلام ذيلا لهذين العلمين وهي التي خصت بعد ذلك باسم البديع.

فكل من جاء بعد السكاكي سار علي نهجه ونسج علي منواله لأنها لاتخرج عن كونها ترديدا وتكرار لمادته ، فهي محاولات قصد بها الإيضاح والتبسيط عن طريق الإيجاز والتلخيص، ولاشك أن هذه الشروح والتلخيصات والمظومات تدل علي عناية أصحابها منذ عصر السكاكي ومابعده بالمناقشات العلمية والمماحكات اللفظية دون العناية بتربية الذوق ففقدت البلاغة بذلك هدفها الرئيس.

مؤسس علم البلاغة

لقد بحث في البلاغة العربية الكثير من الدارسين العرب، إلا أن كتبوه فيها لم يكن غير أراء وإشارات لم يرتقوا بها إلي أن تكون فنا قائما بذاته وفق أسس وقواعد محددة علي هديها الأدباء ، وتقاس بمقاييسها فنية أدبهم وسر جماله ، والذي صاغها فنا له قواعده ومبادئه هو : عبد القاهر الجرجاني ، ولكنه لم يقسم هذ العلم ويبوبه وينظمه ، ومن قام بذلك هو السكاكي بعد أن أخذ تلك العلوم عمن سبقه من البلاغيين ثم جاء القزويني (ت٧٣٩هـ) فألف في البلاغة كتابين : تلخيص المفتاح ، والإيضاح ، وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح ، وجمع فيه الكثير من البحوث البلاغية المفيدة .

لذلك اختلف الأراء حول الواضع الأول لعلوم البلاغة فقد ذهب ابن خلدون إلي أن السكاكي هو الواضع لها بينما أشار طه حسين إلي أن الجاحظ هو واضع هذ العلوم، بينما ذهب جمهور العلماء إلي أن الواضع لها هو عبدالقاهر الجرجاني[١].

من أعلام البلاغة وأشهر مؤلفاتهم

- بشر بن المعتمر (المتوفى: ٢١٠هـ) في صحيفته (صحيفة وضعها

[١] راجع/ نشأة علم البلاغة وتطوره عبر التاريخ: https://fajirsa.blogspot.com/

لتعليم أسس الخطابة)

- ابن المقفع (الأدب الصغير والأدب الكبير وكليلة ودمنة) (المتوفى: ١٤٢هـ)
- الجاحظ في البيان والتبيين (المتوفى: ٢٥٥ هـ).
- مجاز القرآن لأبي عبيدة عامر بن المثنى (المتوفى: ٢٠٧هـ)،
- أبو حنيفة الدينوري في كتاب الفصاحة (المتوفى: ٢٨٠هـ)،
- أبو العباس المبرد في كتاب البلاغة (المتوفى: ٢٨٦هـ)
- عبد الله ابن المعتز(المتوفى: ٢٩٦هـ) صاحب كتاب "البديع".
- وثعلب(المتوفى: ٢٩١هـ) الذي ألف كتابه "قواعد الشعر"
- قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر (المتوفى عام ٣٣٧هـ).
- أبو هلال العسكري(ت ٣٩٥هـ) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر.
- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي(المتوفى: ٣٧٠ هـ)، في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري.
- أبو الحسن لجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (المتوفى: ٣٩٢هـ)
- أبو بكر الباقلاني في إعجاز القرآن (المتوفى: ٤٠٣هـ)
- ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة (المتوفى: ٤٦٦هـ)
- ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده (المتوفى: ٤٦٣ هـ).
- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي: "أسرار البلاغة"،

و"دلائل الإعجاز"

- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة، وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.
- دلائل الإعجاز، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني. كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضًا.

- جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف وهو تطبيق عملي لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.
- فخر الدين الرازي(المتوفى: ٦٠٦هـ) في كتابه: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"
- ضياء الدين أبي الفتح نصر بن محمد بن الأثير (المتوفى: ٦٣٧هـ)،صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"
- وبدر الدين ابن مالك(المتوفى: ٦٨٦هـ) صاحب المصباح في المعاني والبيان والبديع .
- زين الدين محمد بن محمد (المتوفى: ٧٤٨هـ) الأقصى القريب في علم البيان.
- أبو يعقوب السكاكي (المتوفى عام ٦٢٦هـ).

هو سراج الدين أبو يعقوب بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي، إمام من أئمة العربية، وهو فقيه متكلم، متفنن في علوم شتى، سارت بذكره الركبان واشتهر علمه في كل مكان، وفيه وفي الزمخشري يقولون: لولا الأعرجان

لضاعت بلاغة القرآن.

وقد أخذ العلم عن علماء أجلاء، منهم: سديد الدين بن محمد الخياطي، ومحمود بن ساعد بن محمود الحارثي، وبرهان الأئمة محمد بن عبد الكريم التركستاني، وكان يجيد اللغتين التركية والفارسية إلى جانب اللغة العربية.

ومن العلوم التي برع فيها: البلاغة، وعلم الكلام، والفقه، والكيمياء، وعلم خواص الأرض، وكان حنفياً، معتزلياً، توفي في خوارزم سنة ٦٢٦ هـ.

وصف كتباً كثيرة في علوم شتى، ومن أشهرها كتاب "مفتاح العلوم".

هو الكتاب الذي اشتهر به السكاكي، وضمنه إثنى عشر علماً من علوم العربية، وقسمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، والقسم الثاني في علم النحو، والقسم الثالث في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، واختتمه بما به يكمل علم المعاني وهو تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال وهو علم المنطق، ثم بما به ينم الغرض من علم المعاني وهو الكلام في الشعر، وأنهاه بخاتمة أخرى في إرشاد الضلال بدفع ما يطعنون به في كلام رب العزة.

وقد نال هذا الكتاب من عناية علماء البلاغة ما لم ينله كتاب آخر شرحاً وتلخيصاً، وتلخيصاً للشح، وشرحاً للتلخيص.

ومن أظهر شروحه: مفتاح المفتاح للشيرازي، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومفتاح تلخيص المفتاح وشرح تلخيص المفتاح للتفتازاني.

وقد اعتبره البلاغيون من بعده الصيغة النهائية لقواعد البلاغة ومسائلها

وأقسامها وتعريفاتها، ولهذا فإنهم قد عكفوا عليه وأوسعوه شرحاً وإيضاحاً وتقريراً وتلخيصاً، ثم وضعوا عليه الحواشي تلو الحواشي![1]

- الخطيب القزويني (المتوفَّى سنة ٧٣٩هـ) في كتابيه: (التلخيص، والإيضاح)،وجمع في هذا الشرح كثيرًا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح.

المتن والشرح والحاشية والتقرير

المَتْنُ : الظَّهْر، متْنُ الأرض: ما ارتفع وصلُب منها، متْنُ الكتاب: الأصلُ الذي يُشرَحُ وتضاف إِليه الحواشي، المَتْنُ: ما بين كلِّ عمودين، ومتْن اللُّغة: أصولها ومفرداتها وألفاظها.

ومتْن الحديث: غاية ما ينتهي إليه الإسناد من الكلام.

والمقصود **بالمتن** عند علماء البلاغة: النص الذي دارت حوله الأقلام شرحا ودراسة وتوضيحا ونقدا، ككتاب مفتاح العلوم للسكاكي والتلخيص للخطيب القزويني.

الشرح: هو شرح المتن ويقال الشرح لكلام البشر، أما كلام الخالق فاختار له العلماء لفظ التفسير تأدبا مع كلام الله تعالى.

الحاشية: شرح الشرح، **والتقرير**: شرح الحاشية؛ أي شرح شرح الشرح.

يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مقدمة كتاب بغية الإيضاح الذي شرح فيه كتاب الإيضاح للخطيب القزويني، وهي مقدمة جامعة مفيدة في بابها لدارس البلاغة: "أردت –قبل الشروع في شرح كتاب "الإيضاح لتلخيص المفتاح" لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب

---

[1] انظر/ **البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع**، ص١٤.

القزويني "ت ٧٣٩هـ"، بكتابي "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"- أن أضع هذا التقديم؛ لأبين فيه منزلة كتاب الإيضاح بين كتب البلاغة، ولماذا آثرته من بينها بشرحي له؟

والكلام في هذا يرجع بي إلى المدرسة التي ينتمي إليها كتاب الإيضاح من بين مدارس علوم البلاغة، وهي مدرسة الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني "ت ٤٧١هـ" الذي ذهب بالشهرة في هذه العلوم، حتى عدوه بحق شيخ البلاغة؛ لأنه هو الذي وضع أساسها الصحيح بكتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وكان يسمي مسائل البلاغة علم البيان، وقد ذكر أن هذا العلم لقي من الضيم ما لقي، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل، فأراد أن يوفيه حقه ويقرر قواعده تقريرا يليق به، فوضع فيه هذين الكتابين.

وهو يسميه علم البيان بالمعنى الذي يشمل علوم البلاغة الثلاثة الآتية: المعاني، والبيان، والبديع؛ لأن البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير، والعلوم الثلاثة لها تعلق بالكلام الفصيح تصحيحا وتحسينا، على ما سيأتي من الفرق بينهما في ذلك، وإذا كان عبد القاهر لم يفصح عن هذا الفرق بين مباحثها، فقد أشار إليها بتخصيص كتابه "دلائل الإعجاز" لمباحث نظم الكلام؛ من ذكر وحذف وتقديم وتأخير ونحوها؛ فإنه لا يتعرض لغيرها فيه إلا نادرا، وهذه المباحث هي مباحث علم المعاني، وبتخصيص كتابه "أسرار البلاغة" لمباحث الدلالة من الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة ونحوها، وهذه المباحث هي مباحث علم البيان بمعناه الذي صار إليه أخيرا، ثم ذكر المحسنات التي اختص بها أخيرا علم البديع، وأشار إلى منزلتها من البلاغة من رجوعها إلى التحسين لا غير، فلا تطلب فيها على سبيل الوجوب كما يطلب ما يتعلق منها بالنظم

والدلالة، وقد ذهب إلى أن الحسن لا يمكن أن يكون للفظ في ذاته من غير نظر إلى المعنى، حتى ما يتوهم في بدء الفكرة أن الحسن فيه لا يتعدى اللفظ والجرس كالتجنيس؛ لأنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا؛ ولهذا استقبح قول أبي تمام "من الكامل":

ذَهَبَت بِمُذهَبِهِ السَماحَةُ فَالتَوَت فيهِ الظُنونُ أَمَذهَبٌ أَم مُذهَبُ

لأنه لم يزد على أن أسمعك حروفا مكررة؛ تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، وهو يريد غلبت على مذهبه السماحة؛ فكأن فيها مذهبا يظنه بعض الناس.

وكان أسلوب عبد القاهر في كتابيه أسلوبا بليغا ممتازا، يساعد على تربية ملكة البلاغة ولا يفسدها، ولا عيب فيه إلا أن يسرف في العبارات المترادفة؛ حتى تطغى على تقرير القواعد وعلى ما عني به من استخلاص أسرارها من الشواهد النثرية والشعرية، وهو فيما عني به من الأمرين الناقد الأديب، والبليغ الممتاز، وقد طفر بهذا في علم البلاغة طفرة لم يسبق إليها، ولم يأت بعده من سار على هديها حتى لا تقف عند هذا الحد؛ لأن شمس العلم في عصره كانت آخذة في الأفول، وإذا كان هذا حال عصره، فإن حال ما بعده من العصور كان أسوأ؛ فتقهقر علم البلاغة بعده ولم يتقدم.

ثم جاء أبو يعقوب السكاكي "ت٦٢٦هـ" بعد عبد القاهر، فلمح ما أشار إليه الجرجاني فيما سبق من الفروق الثلاثة بين مباحث علم البلاغة؛ فميز بعضها عن بعض تمييزا تاما، وجعل لكل مبحث منها علما خاصا؛ فكان من هذه علوم البلاغة الثلاثة السابقة، ثم جاراه في تقرير قواعدها، وزاد عليه زيادات كثيرة في تقريرها، وهذا في قسم البيان من كتابه "مفتاح

العلوم"، وقد جرى على ترتيبه لهذه المباحث من أتى بعده من المتأخرين، فكان عمدتهم في هذا الترتيب، ولم يستفيدوا إلا قليلا ممن كتب قبله أو بعده في علم البلاغة، ممن لم يجر فيها على منواله، ولم ينح فيها نحوه.

ولا شك أن السكاكي بهذا يعد إلى حد ما من تلاميذ مدرسة عبد القاهر، ولكنه كان ناقدا ولم يكن أديبا؛ لأن أسلوبه في كتابه لم يكن أسلوب البليغ الممتاز مثل عبد القاهر؛ لأن العجمة كانت غالبة على أسلوبه، وكان الأسلوب التقريري الذي لا يعنى إلا بتقرير القواعد غالبا عليه، فكان في أسلوبه كثير من الغموض والتعقيد وضعف التأليف، ومثل هذا قد يفيد الناظر فيه علما، ولا يفيده أسلوبا بليغا، بل يفسد فيه ملكة البلاغة، وبهذا يكون ضرره أكبر من نفعه.

وقد جاء بعد السكاكي عالمان كبيران أرادا أن يحذوا في علم البلاغة حذوه؛ أولهما ابن الناظم: بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) ابن النحوي المشهور، في كتابه "المصباح لتلخيص المفتاح" وثانيهما: الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)في كتابيه "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح لتلخيص المفتاح"؛ وثانيهما كالشرح للأول. فأما مصباح ابن الناظم فإنه لم يهذب كثيرا من مفتاح السكاكي في علم البلاغة؛ لأن ملكة النحو كانت غالبة عليه، وكان هذا سببا في إعراض المتأخرين عن كتابه. وأما تلخيص الخطيب القزويني فإنه هذب كثيرا من مفتاح السكاكي؛ فقدم في مباحثه وأخر، وزاد عليه ما تجب زيادته من كتب البلاغة، وكان أسلوبه فيه أوضح من أسلوب السكاكي، ولكنه جعله أسلوبا تقريريا لا يعنى إلا بجمع القواعد في أوجز لفظ؛ حتى أسرف في الإيجاز إسراف عبد القاهر في الإطناب، وجعل من تلخيصه متنا يحتاج إلى شروح وحواش وتقارير، ولكن عيبه هذا كان موضع تقدير المتأخرين وإعجابهم.

فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضا بحاجته إلى شرح، فوضع كتابه "الإيضاح" كشرح له، يجري على ترتيبه في إطناب يختصره أحيانا من كتابي عبد القاهر، وأحيانا من كتاب السكاكي مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير من النقد الذي يفصله أحيانا، ويرمز إليه أحيانا بقوله: "وفيه نظر". وبهذا جاء "الإيضاح" وسطا بين إيجاز التلخيص، وإسهاب عبد القاهر. وكان بهذا هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة.

ولكنه على هذا لم يرزق من الحظوة عند المتأخرين ما رزق التلخيص؛ لأنهم شغفوا بالمتون حفظا وشرحا. وقد نظروا إلى التلخيص على أنه متن من المتون، فشغفوا بحفظه وشرحه. وكان من السابقين إلى شرحه سعد الدين التفتازاني "ت ٧٩٢هـ"، من علماء العجم؛ فوضع له شرحا مطولا سماه "المطول"، وشرحا مختصرا سماه "المختصر". وكان سعد الدين من علماء العجم الذين تأثروا بالسكاكي في طريقته التقريرية، وفي ضعف أسلوبه؛ لضعف سليقته العربية، بل كان هو وأمثاله ممن أتى بعد السكاكي من علماء العجم أضعف منه ذوقا أدبيا، وسليقة عربية؛ فمضوا في الطريقة التقريرية إلى أن وصلوا إلى نهايتها في البعد عن الذوق الأدبي، ثم أخذوا ينشرونها هنا وهناك إلى أن غزت علماء العرب، وغزت جميع العلوم من عربية، إلى دينية، إلى غيرها من العلوم. وصارت عنايتها بتقرير عبارات المتون أكثر من عنايتها بتقرير مسائل العلوم.

ثم تهافت المتأخرون من علماء البلاغة على شرحي سعد الدين علي التلخيص، يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية، ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير، وشغف المدرسون بتلك الكتب في الجامع الأزهر وغيره من الجامعات الإسلامية في الأقطار المختلفة، يتعمقون في درسها إلى أقصى حدود التعمق، وينتقلون في درسها من المتن إلى الحاشية إلى

التقرير، في استقصاء غريب، وتفنن في الفهم والبحث. ولو أن كل هذا في صميم مسائل البلاغة لهان الخطب، ولكن أكثره في بحوث خارجة عن المسائل، وفي أسلوب ركيك يفسد ملكة البلاغة؛ فإذا كانت فيه فائدة قليلة؛ فإنها تضيع في هذا الخضم الذي لا فائدة فيه.

وقد تأبى كتاب "الإيضاح" وطريقته السابقة على المتأخرين من علماء البلاغة؛ فلم يضعوا عليه من الشروح والحواشي والتقارير مثل ما وضعوا على كتاب التلخيص اللهم إلا شرحا ضعيفا للأقسرائي لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية، ومن الخير أن يبقى مخطوطا فيها؛ لأنه يذهب مذهب غيره في الطريقة التقريرية، وينأى عن طريقة كتاب الإيضاح السابقة؛ فيكون ضرره فيها أكثر من نفعه.[1]

يتألف علم البلاغة من ثلاثة علوم هي:

١- علم المعاني

هو علم اختيار الكلام بما يتناسب مع المخاطبين. أي لكل مقام مقال. حيث يجب مخاطبة كل شخص على قدره.

يتمثل علم المعاني كذلك في مطابقة الكلام لمقتضى الحال أي وفقًا للغرض الذي سيق له، من حيث الإيجاز والإطناب وفقًا للموقف. أي عندما الموقف يستدعى استخدام الكثير من الكلام لتوضيح الفكر توضيحًا وافيًا، أو استخدام كلمات أقل لشرح ما يجول في خاطره. وبالتأكيد هذا يعتمد على من يستقبل الكلام وقدرته على الاستيعاب.

وهو **عِلمٌ يُعرَفُ بِهِ أحوال اللَّفظِ العربيِّ التي بِها يُطابِقُ مُقتَضى الحال**، وهذا التعريفُ منسوبٌ إلى الخَطيبِ القزوينيّ وقد ذكرهُ في

---

١ بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ٢٠٠٥م،ص٣-٧.

كِتابِهِ الإيضاح، وعلى هَذَا التعريفِ اندرجَ عُلمَاءُ البَلاغَةِ المُتأخِّرينَ. ومَعنَى الحالُ في التعريف: أي الحالُ التي وَقَعَ فيها ذِكرُ هذا الكَلام، والمُقتَضى: ما تَقتَضيهِ هذهِ الحالُ مِن صُوَرٍ مُختَلِفةٍ في الكَلام. ولِكُلِّ مَقامٍ مَقال، وعلم المعاني يهتَمُّ بتوافقِ الكلامِ مع مقامهِ ومُقتَّضَاهُ.

و لَعَلَّ أوَّل مَن سَمّى عِلمَ المعاني بهذه التَسميةِ شيخُ البلاغيين :عبد القاهر الجَرَجَانِيّ في كتابِهِ دَلائِلُ الإعجاز .وقد كان يقصدُ بِكلِمَة المعاني : معاني النَّحو أَوَّلاً وأَخيراً. فقال يَشرَحُ المُرادَ مِن علمِ المعاني: أنه ائتلَافُ الألفاظِ ووضعُهَا في الجُملةِ الموضِعَ الذي يفرضهُ معناه النَّحوِي. وقال في موضعٍ آخر: واعلم أَنَّ ليسَ النَّظمَ إِلَّا أن تَضَعَ كلامكَ المَوضِعَ الذي يقتضيهِ عِلمُ النَّحو، فتعملُ على قوانينِهِ وأُصولِهِ وتعرفُ مَنَاهِجَهُ التي نُهِجَت فلا تَزيغُ عنها، وتحفظَ الرُسُومَ التي رُسِمَت لَك، فلا تَخِلَّ بِشَئٍ منها. وهذا هو السبيل، فلستَ تجدُ شيئاً يَرجِعُ صوابُهُ إن كان صواباً، وخطؤهُ، إن كان خطأً، ويدخلُ تحت هذا الاسم إلا وهو معنىً مِن معاني النَّحو، قد أُصِيبَ بِهِ موضِعُهُ، ووُضِعَ في حَقِّهِ، أو عُومِلَ بِخلافِ هَذِهِ المُعاملةِ، فأُزيلَ عن مَوضِعِه، واستُعمِلَ في غَيرِ ما ينبغي له.

وقال السَّكَاكِي) :عِلمُ المَعَانِي : هو تَتَبُّعُ خَوَاصِ تراكيبِ الكَلَام في الإفادةِ، ومَا يَتَّصِلُ بِهَا مِن الاستِحسَانِ وغَيرِه، لِيَحتَرِزَ بِالوقوفِ عليها عنِ الخَطَأِ في تطبيقِ الكَلامِ على ما يقضِي الحَالُ ذِكرَه.

وندرس في هذا العلم: أَحوالُ الإسنادِ الخَبَريّ والإنْشَاء، وأَحوالُ المُسنَد إليه، وأَحوالُ المُسنَد، وأَحوالُ مُتَعلِّقاتِ الفِعل، والقَصر، الفَصلُ والوَصل، والإيجازُ والإطنابُ والمُساواة.

فعلم المعاني يساعدنا على اختيار التركيب اللغوي المناسب لكل

موقف.

٢- علم البيان

البيان: (لغة) الكشف والظهور.

وعلم البيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

فهو عبارة عن أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق متعددة وتراكيب متفاوتة، من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية، مختلفة من حيث وضوح الدلالة على ذلك المعنى الواحد وعدم وضوح دلالتها عليه، فالتعبير عن جود حاتم مثلا يمكن أن يكون بهذه الألفاظ: جواد، كثير الرماد، مهزول الفصيل، جبان الكلب، بحر لا ينضب، سحاب ممطر، وغيرها من التراكيب المختلفة في وضوح أو خفاء دلالتها على معنى الجود.

وندرس فيه:

التشبيه والمجاز (الاستعارة والمجاز المرسل) والكناية .

٣- علم البديع

البديع في اللغة هو الشيء الجديد والحديث والغريب، وإيجاد الشيء واختراعه على غير مثال، حيث يقول الله تعالى في محكم تنزيله: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ).

ويُعرف البديع في الاصطلاح على أنَّه فن من فنون القول الحديث، وعلم البديع هو العلم الذي يُعرف به وجوه حسن الكلام؛ وذلك بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، كما يُعرف بأنَّه النظر في تزيين الكلام وتحسينه

بنوع من التنميق من خلال تفصيله بالسجع، أو استخدام الجناس، أو الترصيع، أو تورية المعنى، أو الاستعانة بالطباق، وما إلى ذلك.

وأول من بحث في هذا العلم هو الخليفة العباسي الأديب عبد الله بن المعتز في كتابه البديع في نقد الشعر.

ويعرف ابن خلدون علم البديع بأنه" هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك".

المحسنات البديعية تنقسم إلى نوعين:

معنوي: يقصد به تحسين المعنى أولًا ثم اللفظ.

لفظي: يقصد به تحسين اللفظ وذلك يتبعه تحسينًا في المعنى؛ فالمعنى يعبر عنه من خلال لفظ فإذا تم تحسين اللفظ حسن المعني كذلك، مثل السجع والجناس والرد العجز على الصدر.

نظرية النظَّام
القول بالصُّرفة

القول بالصُّرفة عند النظَّام

هو أوّل من جهر بنظرية الصرفة وأشهر من قال بها هو النظّام حتى صارت لا تذكر إلاّ مقرونة باسمه، وقد أعطى للدرس البلاغي والإعجازي دفعا قويا سواء من حيث أراد ذلك أو لم يرد وسواء من حيث حاول الدفاع عن القرآن الكريم أو الطعن فيه.

اسمه: إبراهيم بن سيار بن هانئ أبو إسحاق مولى آل الحارث بن عباد الصبعي البصري المتكلم، ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة المعروف بالنظام بالظاء المعجمة المشددة، قالت المعتزلة: إنما لقب بذلك لحسن كلامه نظماً ونثراً، وقال غيرهم: إنما سمي بذلك لأنه كان ينظم الخرز بسوق البصرة ويبيعها.

وقال عنه د.علي سامي النشار: النظام هو"أكبر شخصية فلسفية معتزلية في العالم الإسلامي ، صدر عن فكر مبدع ونظام فلسفي دقيق ، وقد تنبّه الأقدمون إلى ما له من قيمة عظيمة وأثر كبير، وقد شغلت هذه الشخصية القرن الثالث والرابع وتأثرت به المجامع الفكرية سواء كان أصحابها فلاسفة أو متكلمين أو شعراء أو أدباء بحيث نجد اسمه ستردد على ألسنتهم جميعا".[1]

وقال عنه أيضا:"هاجم معظم مفكري أهل السنة النظام، واعتبروه ملحدا من كبار الملاحدة وصوروا حياته تصوير رجل مستهتر يقضي جلّ وقته في الفسق والفجور ونحن لا نسرع بتصديق هذا فقد اشتهر المعتزلة بأنهم رجال أتقياء وزهاد متعبدون وقد دافع الخياط عنه دفاعا مجيدا وذكر لنا في مواضع عدة دفاع النظام عن الإسلام . [2]

---

١ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٥٥٨/١.

٢ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٥٥٨/١.

ذكر القاضي عبد الجبار شيئا عن قيامه في وجه الملاحدة والفلاسفة أنّ النظام كان يقول وهو يجود بنفسه "اللهمّ إن كنت تعلم إني لم أقصّر في توحيدك ، اللهمّ ولا أعتقد مذهبا إلاّ سنده التوحيد اللهم إن كنت تعلم ذلك فاغفر لي ذنبي وسهّل عليّ سكرة الموت ." [1]

وهذا دليل على أنه مات موحدا رغم ما اشتهر عنه وما نعت به من الانحراف في العقيدة.

قال الإمام الذهبي: وله نظم رائق، وترسل فائق، وتصانيف جمة، منها: كتاب " الطفرة " وكتاب " الجواهر والأعراض "، وكتاب " حركات أهل الجنة "، وكتاب " الوعيد "، وكتاب " النبوة "[2]

الصرفة(لغة):

من الصرف: والصَّرْفُ رَدُّ الشيء عن وجهه صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ وصارَفَ نفْسَه عن الشيء صَرفَها عنه وقوله تعالى: (ثم انْصَرَفوا)؛ أَي: رَجَعوا عن المكان الذي استمعُوا فيه، وقيل انْصَرَفُوا عن العمل بشيء مما سمعوا (صَرَفَ اللّه قلوبَهم)؛ أَي: أَضلَّهُم اللّه مُجازاةً على فعلهم وصَرفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ... وقوله: (فما يَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً) أَي: ما يستطيعون أَن يَصْرِفُوا عن أَنفسهم العَذابَ. والصَّرْفُ أَن تَصْرِفَ إنساناً عن وجْهٍ يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك وصَرَّفَ الشيءَ أَعْمله في غير وجه كأَنه يَصرِفُه عن وجه إلى وجه.[3] وتدور معانيه حول معنى تغير شيء عن وجهته وأصله وهو معنى ظاهر في صرف العرب بذواتهم أو هممهم عن معارضة القرآن فهم محوّلون من اتجاه الإتيان بمثل القرآن إلى وجهة أخرى وهي عدم الإتيان بمثله.

---

١ مقالات الإسلاميين للأشعري ٣/٦٦ . ١٧٧.

٢ الفهرست، ابن النديم ص٢٠٦.

٣ (لسان العرب: مادة صرف)

معنى الصرفة: إنّ نظرية الصرفة تقابل عند المتكلمين وعلماء الإسلام نظرية القول بإعجاز القرآن في ذاته أو ما يسميه البعض الإعجاز بالنظم، فإذا كان جمهور المسلمين يرون أنّ القرآن من حيث بلاغته وبداعة سبكه وروعة نظمه وجمال أسلوبه وصل درجة الكمال والإعجاز وبالتالي تقصر القدرة البشرية وتعجز عن الإتيان بمثله سواء في زمن الوحي والنبوة يوم وقع التحدي أوّل مرة أو قبله أو بعده على حدّ سواء.

ونظرية الصرفة قائمة على ثلاثة أسس:

أولا: الاعتراف بفصاحة القرآن وبلاغته ولكن ليس إلى حدّ الكمال والإعجاز.

ثانيا: إمكانية الإتيان بمثله فإنّ ذلك في طوق بلغاء العرب وقدرتهم.

ثالثا: إنّ إعجاز القرآن يكمن في الحيلولة دون معارضته رغم إمكانية ذلك .

يقول الإمام الزركشي (٧٩٤هـ) مبيّنا وشارحا قول النظّام:"إنّ الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم ، وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات".[١]

ويقول عبد القاهر الجرجاني مبيّنا معتقد النظّام في القرآن من حيث إعجازه: "والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه – أي النظام –: أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي – عليه الصلاة والسلام – ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم، والتأليف.[٢]

---

١ البرهان في علوم القرآن ٢/٩٢.

٢ دلائل الإعجاز، ص٢٢.

ولنظرية الصرفة أصل هندي حيث إنّ للهنود كتابا دينيا وثنيا يسمونه "الفيدا" وهو عبارة عن مجموعة شعرية لإلههم "براهما" يدّعون لها الإعجاز وعدم قدرتهم على الإتيان بمثلها لا من جهة محتواها أو بلاغتها ولكن لأنّ براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها.

يقول البيروني (٤٣٠ هـ) في كتابه (ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة): "إنّ خاصتهم يقولون إنّ في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها.

علاقة الاعتزال بالصرفة:

أوّلا من الناحية العملية: عُرف المعتزلة ـ في أوّل لقاء وتصادم بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم ـ بأنّهم حملة لواء الدفاع عن الدين والذوذ عن الكتاب المبين وسنة النبي الأمين فهم الذين واجهوا الملحدين والدهريين والمشككين وضحدوا الشبهات والنظريات الوافدة من خارج دولة الإسلام سواء منها خرافات وهرطقة[1] فلسفة الهند واليونان أو تحريفات وتضليلات اليهود والنصارى ونظرية الصرفة ما هي إلاّ حلقة في سلسلة ردودهم على المشككين في معجزة القرآن الكريم وكونه كلام الله تعالى الموحى به إلى خاتم النبيين والمرسلين.

ويقول د.أحمد أبو زيد: إن"إيراد قضية إعجاز القرآن في سياق هذا البحث المتعلق بالصرفة، وفي معرض الرد على الدهريين يفيد بأنّ هذه النظرية إنما وُضعت للدفاع عن القرآن وتنزيهه عن مطاعن الملحدين

ثانيا من الناحية العلمية: هذا من الجهة العملية التطبيقية أمّا من الجهة العلمية النظرية فإنّ الاعتزال قائم على أصول ستة لعلّ أوّلها وأهمها

---

١ هي تغيير في عقيدة أو منظومة معتقدات مستقرة، وخاصة الدين، بإدخال معتقدات جديدة عليها أو إنكار أجزاء أساسية منها .

ما يصطلحون عليه بالتوحيد وحقيقته وأساسه (نفي الصفات عن الله عزّ وجلّ)، وما القول بنظرية الصرفة إلاّ انعكاسا لهذا الأصل إذ منطلقها نفي الكلام عن الله عزّ وجلّ ...فلفظ القرآن خلقه الله وليس هو من صفاته ... لأنّ القول بأنه صفة من صفاته يقتضي بالضرورة مغايرته لكلام البشر في لفظه ومعناه وفي أسلوبه ومحتواه ... وبالتالي إعجازه من جهة ذاته .... لهذا السبب لجأ المعتزلة إلى إثبات إعجازه خارج لفظه واهتدوا إلى نظرية الصرفة.[1]

١ (نظرية الصرفة حقيقتها القائلون به والردّ عليها، فتحي بودفلة، https://mtafsir.net/forum

نظرية النظم
لعبد القاهر الجرجاني

نظرية النظم

صاحب هذه النظرية هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرْجَانِيّ (٤٠٠-٤٧١)هـ/(١٠٠٩-١٠٧٨)م.

نحوي ومتكلم، وُلِد في جرجان لأسرةٍ فقيرة الحال، نشأ مهتماً بالعلم، مُحبّاً للثقافة، فأقبل على الكتب يقرأها، وخاصةً كتب النحو والأدب، ويُعد مؤسس علم البلاغة.

فارسي الأصل، جرجاني الدار، وُلِدَ في جرجان وعاش فيها دون أن ينتقل إلى غيرها حتى توفي سنة ٤٧١ هـ .لا نعرف تاريخ ولادته، لأنه نشأ فقيراً، في أسرة رقيقة الحال، ولهذا أيضاً، لم يجد فضلة من مال تمكنه من أخذ العلم خارج مدينته جرجان، على الرغم من ظهور ولعه المبكر بالعلم والنحو والأدب، فدرس سالعلم على يد عالمين جليلين في جرجان.

وله كتابان وضع فيهما أصل نظريته هما: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وقد قيل عنه: كان ورعًا قانعًا، عالمًا، ذا نسك ودين، كما ألف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن) حققها مع رسالتين أخريين للخطابي والرماني في نفس الكتاب كل من محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، وهي من أفضل ماكُتِب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة. توفي عبد القاهر الجرجاني سنة 471 هـ، من كتبه أيضا: العوامل المئة والمفتاح في الصرف.

النظم هو: التأليف، ونظمت اللؤلؤ: جمعته في السلك ومنه: نظمت الشعر، ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضها إلى بعض فقد نظمته، والنظم، المنظوم، وصف بالمصدر، والنظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما[1]

تعريف النظم عند عبد القاهر الجرجاني: إنه تتبع معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يقصدها المتكلم.

شرح عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز وعرضها عرضا واسعا، ففي مقدمته يعرف النظم بأنه: تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، تعلق اسم بفعل، تعلق حرف بهما، وبذلك كان أول ربط بين النظم وعلم النحو.

والنظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات حيث يقول: واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تبخل بشيء منها .وهذا التعريف الشامل يوضح مدى العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني في تحديد نظرية النظم.

عالج قضايا التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والإظهار والإضمار، والاستفهام، والنفي، والحذف، والتعريف والتنكير، وغيرها من مباحث علم المعاني، وقد طبق الجرجاني بالفعل هذه النظرية تطبيقا عمليا منهجيا على آيات من كتاب الله، وعلى نصوص من أشعار العرب، فجمع

[1] لسان العرب (مادة: نظم).

بذلك بين النظرية والتطبيق، وأسس لفرع مهم من الدراسات البلاغية النقدية أفاد كل من خلفه في هذا المضمار.

الغاية من معرفة نظرية النظم

إن غاية ما يسعى إليه عبد القاهر من نظريته هو الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى مستوى رفيع؛ ليأتي التعبير عن المعاني مساو للحقيقة الراسخة في نفس السامع والقارئ والمتكلم، دون زيادة أو نقصان، ودون حاجة إلى اجتهاد في تأويل أو تفسير، بل يجب أن تأتي صور الكلام مساوية المعاني صورة بصورة، حسا وحركة وحيوية ولونا ومفهوما دون ملابسة»، ويبدي عبد القاهر رأيه في هذه المزية اللغوية بقوله: واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة، من غير أن تغير من لفظه شيئا. أو تحول كلمة عن مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير، حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر، ويفسرون البيت الواحد عدة تفاسير، وهو على ذلك الطريق المذلة التي ورط كثيرا من الناس في الهلكة، وهو مما يعلم به العاقل شدة الحاجة إلى هذا العلم، وينكشف معه عوار الجاهل به.

أجاب الجرجاني عن سر عجز العرب عن الإتيان بمثله، وفسّر إعجابهم به فقال:"أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل، مساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها، ولفظة ينكر شأنها، ويرى أن هناك أصلح هناك أو أشبه،

أو أحرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم–ولو حك بيافوخه السماء– موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول."

طبق الجرجاني قواعد النظم على النصوص فتناول دور علم المعني في خدمة النظرية، ومن ذلك:

دخول إن على الجملة ودورها في الربط بين الجمل

خبر الكندي الفيلسوف مع ثعلب وزعمه أن في كلام العرب حشوا:

٣٧١ – واعلمْ أَنّ ممَّا أَغمضَ الطريقَ إِلى معرفَةِ ما نحنُ بصدده، أَنَّ ههنا فروقاً خفيَّةً تَجهلُها العامَّةُ وكثيرٌ من الخاصة، ليس أَنَّهم يَجْهلونَها في موضعِ ويَعْرفونها في آخرَ، بل لا يَدْرون أَنها هي، ولا يَعْلمونها في جملةٍ ولا تفْصيل.

رُويَ عن ابن الأنباريِّ أَنه قال :ركبَ الكنْديُّ المتفلسِف إلى أبي العبّاس وقال له: إني لأَجِدُ في كلامِ العَرب حَشْواً! فقال له أبو العباس: في أي وضع وجَدْتَ ذلك؟ فقال :أَجدُ العربَ يقولون" :عبدُ الله قائمٌ"، ثم يقولون" إنَّ عبدَ الله قائمٌ"، ثم يقولونَ" :إنَّ عبدَ اللهَ لقائمٌ"، فالألفاظُ متكررةٌ والمعنى واحدٌ .فقال أبو العباس :بل المعني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم" :عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه وقولهم" :إن عبد عبدَ الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقوله" : إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني. قال فما أَحَارَ المتفلسِفُ جواباً.

وإذا كان الكنديُّ يذَهْبُ هذا عليهِ حتى يَرْكَبَ فيه ركُوبَ مستفهِمٍ أو معْترِضٍ، فما ظنُّكَ بالعامَّة، ومَنْ هو في عِدادِ العامَّة، ممَّنْ لا يَخْطُرُ شبْهُ هذا بباله؟

دخول" إن "في الكلام، وخصائصها:

واعلمْ أنَّ ههنا دقائقَ لو أنَّ الكنديَّ استقرى وتصفَّحَ وتَتَبَّع مواقِعَ" إنَّ"، ثم ألْطَفَ النظرَ وأكثرَ التدبُّرَ، لعَلِمَ عِلْمَ ضرورةٍ أنْ ليس سواء دخولها وأن لا تدخل.

أوَّلُ ذلك وأعْجَبُه ما قدَّمتُ لك ذكْرَه في بيتِ بشارٍ:

بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ إنَّ ذاكَ النَّجاحَ في التبكيرِ

وما أنشدتُه معه من قولِ بعضِ العرب:

فغَنِّهَا وهْي لكَ الفِداءُ إنَّ غناءَ الإبِلِ الحُداءُ

وذلك أنه هَلْ شيءٌ أَبْينُ في الفائدةِ، وأَدلّ على أنْ ليس سواءً دخولُها وأنْ لا تدخل، أنكَ ترى الجملةَ إذا هيَ دخلَتْ تَرتبِطُ بما قبْلَها وتأتلفُ معه وتَتَّحدُ به، حتى كأنَّ الكلامَيْنِ قد أُفرِغا إفراغاً واحداً، وكأَن أحدَهُما قد سُبِكَ في الآخَرِ؟

هذه هي الصورةُ، حتى إذا جئتَ إلى" إنَّ "فأسقطتَها، رأيتَ الثاني منهما قد نَبَا عن الأولِ، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ، حتى تجيءَ" بالفاءِ "فتقولُ" :بكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ، فذاكَ النجاحُ في التبكير"، و" غنِّها وهيَ لكَ الفداءُ، فغناءُ الإبِلِ الحُداءُ"، ثم لا ترَى" الفاء "تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه مِنَ الألفة، ولا تردُّ عليك الذي كنت تجد" بإن "من المعنى.

وهذا الضربُ كثيرٌ في التَّنزيلِ جدَّاً، من ذلك قولُه تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم)(الحج: ١)، وقولُه عزَّ اسمُه: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (لقمان: ١٧)[١]

---

١ دلائل الإعجاز:٣١٥

باب التقديم والتأخير

وهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، بعيد الغاية، وهو على وجهين:

تقديم على نية التأخير: كخبر المبتدأ في قولك:(منطلق زيد)، فمعلوم أن منطلق لم تخرج بالتقديم عما كانت عليه من كونها خبر المبتدأ ومرفوعة بذلك.

تقديم لا على نية التأخير: وهو أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعله بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل منهما أن يكون مبتدأ والآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا لعلة بيانية ولفضل بلاغي، ومن أمثلة ذلك «الاستفهام بالهمزة» فإن موضع الكلام إذا قلت:«أفعلت؟» فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، أما إذا قلت:«أأنت فعلت؟» فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل، وهنا يتجلى دور النحو والنظم في تحديد الدلالة، وأن بينهما رباط قوي لا ينفصم، وهذا ما يميز اللغة العربية؛ فالإنكار يتوجه إلى ما يأتي بعد أداة الاستفهام.

باب الحذف

وهو باب دقيق المسالك، عجيب الأمر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ومن لطيف الحذف قول ابن النطاح:

العَينُ تُبدي الحُبَّ وَالبُغضا وَتُظهِرُ الإِبرامَ وَالنَقضا
دُرَّة ما أَنصَفَتني في الهَوى وَلا رَحِمت الجَسَدَ المُنضى
غَضبى وَلا وَاللَهِ يا أَهلَها لا أَشرَبُ البارِدَ أَو تَرضى

يقول هذه الأبيات في جارية كان يحبها، والمقصود قول(غضبى)، والتقدير (هي غضبى) أو(غضبى هي) لا محالة، إلا أنك ترى النفس كيف تتفادى إظهار هذا المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به.

فن الاستعارة من حسن النظم

وقد ربط الجرجاني الاستعارة بعلم المعاني ربطا بديعا، وأوضح أن من أنواع الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا بعد العلم بالنظم، ويذكر أنها على غرابتها ولطفها إنما تم لها الحسن بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، ومن دقيق ذلك أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) (مريم:٤) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، وليس الأمر ذلك، إنما الجمال أن تعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى، وإن كان للرأس في اللفظ، فهل إذا أخذت اللفظ وسندته إلى الشيب صريحا فتقول:(اشتعل شيب الرأس) هل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فما السبب في أن (اشتعل) إذا استعير (للشيب) كان له الفضل؟

السبب أنه يفيد لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل الشمول، وأنه قد شاع فيه، وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد إلا ما لا يعتد به، ونظير ذلك في التنزيل قول الله عز وجل : (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) (القمر:١٢)، فإن التفجير للعيون في المعنى لكنه أوقع على الأرض في اللفظ، وذلك أفاد أن الأرض قد صارت عيونا كلها، وأن الماء كان يفور من كل مكان، ولو قيل: (فجرنا عيون الأرض) لم يفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض. [١]

١ انظر/نظرية النظم عند الجرجاني https://ar.wikipedia.org/wiki

تخير اللفظ

البلاغة والنظم

تحدث د. أحمد البدوي عن البلاغة والنظم وتخير اللفظ في القرآن الكريم مبينا بلاغته وفصاحته وحسن سبكه وجودة نظمه فقال: لا تفضل الكلمة صاحبتها منفردة في قاموس اللغة، من حيث دلالة كل على معناه، فكلمة قال، لا تفضل تكلم، وكلمة رجل، لا ميزة لها على أسد، اللهم إلا من ناحية أن بعض الكلمات أسهل جريا على اللسان من بعض، وأخف نطقا، فتجد مثلا كلمة النفس أسلس من كلمة الجرشى، وكلمة مرتفعات أسلس من كلمة مستشزرات، وإلا من ناحية كثرة استعمال بعضها وغرابة البعض الآخر، فإذا ما نظمت الكلمة في جملة، صارت دالة على نصيبها من المعنى، وصار من حقنا أن نسأل: لم اختيرت هذه الكلمة دون تلك، ولم آثرنا صيغة على أخرى؟

وإن الأسلوب قد يروعك ويبهرك، فإذا أخذت مفرداته كل مفرد على حدة، فقد لا تجد فيه كبير روعة، ولا قوة أسر، ولكن عند ما انتظمت هذه المفردات في سلك فلاءمت ما قبلها، وارتبطت بما بعدها، واكتسبت جمالا وجلالا، وإن شئت فانظر قوله تعالى: وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (هود ٤٤). فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدتها، من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقسوم لها في معنى الجملة كلها، فقد لا تجد لها من التأثير ما تجده لها، وهى بين أخواتها تؤدى معناها.

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها، ونتبين جمال اختيارها، وندرك ما لها من الميزة على صاحبتها، وإذا سلكنا هذا المسلك في الآية الكريمة رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان، من ابتلاع الأرض ماءها، ونقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها، واستواء السفينة على الجودى، وقد طهرت الأرض من رجس المشركين، فصور الله ذلك

تصويرا حسيّا، يؤكد في نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة وخضوعها لأمر الله، فهذا المطر المدرار ينهمل من السماء، وهذا الماء الطاغى يجتاح نواحى الأرض، وهذا الاضطراب فى أرجاء الكون، لم يلبث أن سكن واستقر، وعادت الطبيعة إلى هدوئها، عند ما تلقت أمر الله لها أن تسكن وتهدأ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون، أو يروا قائله، بنى الفعل للمجهول كما ترى، وأوثر في نداء الأرض يا دون الهمزة، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللسان في النطق بهما، وفضّلت كذلك على «أيا» لما في هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض، وهى رهن أمر الله، فى حاجة إليه، وأوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها، فالمقام هنا يستدعى ذلك التصغير، ويستدعى الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بأيتها، وجاءت كلمة ابْلَعِي هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، وهو أن تبتلعه في سرعة، فهى هنا أفضل من امتصى مثلا؛ لأنها لا تدل على الإسراع في التشرب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحى بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها، فكأنها لم تكلف شططا من الأمر، وقل مثل ذلك في قوله: وَيا سَماءُ أَقْلِعِي، ولاحظ هذا التناسق الموسيقى بين ابلعى وأقلعى، وبنى غِيضَ للمجهول، مصورا بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم، وكأنما قد حدث ذلك من تلقاء نفسه، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل، واختيرت كلمة استوت دون رست مثلا لما في كلمة استوى من الدلالة على الثبات المستقر، وبنى الفعل قِيلَ للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء، وجاءت كلمة بُعْداً دون (هلاكا) مثلا، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد

به إبعادهم عن الفساد في الأرض، والسخرية بمن آمن وعمل صالحا، وأوثر المجيء بالموصوف هنا؛ لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لاتصافهم بالظلم، وإنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد؛ لاتصافهم بالظلم، فالمقام هنا، مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم، فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم، وأحس في كلمة بعدا، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من في الكون، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين، ولعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم، أثرا في ذلك. أو لا ترى الآية قد صورت لك ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير، فى عبارة موجزة، فها هى ذى الأرض تبتلع ماءها، وها هى ذى السحب في السماء تنقشع مقلعة، وها هو ذا الماء قد غاض، وعادت الطبيعة كما كانت، فاستقرت سفينة نوح ومن معه على الجودى، وتنفس الكون الصعداء، فقد طهر من القوم الظالمين.

وقد يتجمع الحسن حول حرف واحد في الآية، يثير في نفسك ألوانا من المعانى، لا تجدها إذا استبدلت به حرفا آخر، واستمع إلى قوله تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) (الروم ٥٥، ٥٦). ألا تشعر بما حول هذه الفاء، من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث: ألا تزالون مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون ربّا أنكرتم لقاءه؟ وشبيه بهذا قول الشاعر، وقد تمثل به أبو بكر، حين أتاه كتاب خالد بالفتح وهزيمة الأعاجم:

تَمنَّانا ليَلْقانا بقومٍ تخالُ بياضَ لأُمِهِمُ السَّرايا

فقد لاقيْتَنا فرأيْتَ حَرْباً عَواناً تمنع الشيخَ الشرابا

فتأمل موضع الفاء في قوله: فقد لاقيتنا، أو لا ترى فيها معنى الاستخبار عما شاهده الأعداء منهم، عند ما لا قوهم، ومعنى الإخبار بأنهم أبلوا خير البلاء، وكانوا فى الحرب أبطالا مغاوير، وكذلك تأمل موضع الفاء في قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أَقصى ما يُرادُ بنا ثُمَّ القفولُ فقد جئْنا خراسانا

أو لا ترى فيها معنى اللهفة على استنجاز الأمل، والشوق القاتل إلى العود إلى الوطن المفارق، والمطالبة بتنفيذ ما وعد به، قبل أن يبدأ رحلته.

تخير اللفظ

يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا.

ولما بين الكلمات من فروق، ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر، فقال: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ (الحجرات ١٤). فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه،ولما كانت كلمة راعِنا لها معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا (البقرة ١٠٤)، فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ، يؤدى به المعنى.

استمع إليه في قوله: وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (البقرة ٤٩). ما تجده قد اختار الفعل ذبح، مصورا به ما حدث، وضعّف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل فى أبناء إسرائيل يومئذ، ولا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون.

وتنكير كلمة حياة، فى قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ) (البقرة ٩٦).

يعبر تعبيرا دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها، مهما كانت حقيرة القدر، ضئيلة القيمة، وعند ما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم في قوله تعالى: وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (الفجر ٢٣، ٢٤). عبرت بأدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ، وقد أدرك في جلاء ووضوح أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا وهما باطلا، وسرابا خادعا، أما الحياة الحقة الباقية، فهى تلك التى بعد البعث؛ لأنها دائمة لا انقطاع لها، فلا جرم أن سماها حياته، وندم على أنه لم يقدم عملا صالحا، ينفعه في تلك الحياة.

واستمع إلى قوله تعالى: إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ۝ فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) (الإنسان ١٠، ١١)، تجد كلمة العبوس قد استعملت أدق استعمال؛ لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فإنهم يجدونه عابسا مكفهرّا، وما أشد اسوداد اليوم، يفقد فيه المرء الأمل والرجاء، وكلمة قَمْطَرِيراً بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم، وفي كلمتى النضرة والسرور تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين، وما يبدو على وجوههم من الإشراق، وعما يملأ قلوبهم من البهجة.

ومن دقة التمييز بين معانى الكلمات، ما تجده من التفرقة في الاستعمال بين: يعلمون، ويشعرون، ففي الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها، تجد كلمة يَعْلَمُونَ صاحبة الحق في التعبير عنها، أما الأمور التى يكون للحواس مدخل في شأنها، فكلمة يَشْعُرُونَ أولى بها، وتأمل لذلك قوله تعالى: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ (البقرة ١٣). فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل، وقوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (البقرة ٢٦). وقوله تعالى: أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (البقرة ٧٧). وقوله تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ لْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (الأنعام ١١٤). وقوله تعالى: أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (يونس ٥٥). وقوله تعالى: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (الأنبياء ٢٤). وقوله تعالى: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥). إلى غير ذلك مما يطول بى أمر تعداده، إذا مضيت في إيراد كل ما استخدمت فيه كلمة يعلمون." [١]

١ من بلاغة القرآن، أحمد البدوي، نهضه مصر – القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٩-٥٣)

نشأة اللغة

ووظيفة التعبير اللغوي

التعبير اللغوي أسمى أنواع التعبير، وأوضحها في الدلالة على المراد، وأيسرها على المعبرين، وهو الأصل في الإبانة والكشف، وبه تتفاوت الدلالات في القوة والضعف، والغموض والوضوح، وبه تظهر الميزة بين قول وقول، ومعنى ومعنى، وهو أقدرها على تصوير المعاني الدقيقة ونقلها إلى السامعين. . وهو الذي يميز الإنسان بأسلوبه الراقى مما سواه من كائنات لها القُدرة على أن تطلق أصواتاً.

ومن هنا ساغ للمناطقة أن يعرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق. ويريدون بالنطق التفكير وهو لا يكون إلا بوساطة عبارات تكونه وتظهره.

وقد فرق المشتغلون بالدراسات اللغوية بين التعبير عند الإنسان والتعبير عند الحيوان. بأن اللغة عند الإنسان ذات مقاطع صالحة للدخول في تراكيب تدل دلالة واضحة على معان كلية، أما لغة الحيوان فهى لغة انفعالية غرزية تتكون من أصوات طولية مصحوبة بحركات تدل على معان مبهمة لا تتضح إلا بالتكرار وهي غير صالحة للدخول في تراكيب تدل على معان كلية واضحة، فالتعبير الواضح الجميل خاصة من خصائص الإنسان الراقى، ولعل الآية الكريمة: (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) تدل على هذا المعنى.

وقد عرف المجتمع البَشرى – منذ بداوته – التعبير اللغوي، لأن الإفصاح عما يحول في نفسه من معان وخيالات ضرورة من ضرورات حياته الجَماعية، وللعلماء – قديماً وحديثاً – بحوث ونظريات حول " نشأة اللغة الإنسانية" والمراحل التي مرت بها حتى وصلت إلى مرحلة الكمال أو قربت منها.

الآراء حول نشأة اللغة:

ويمكن إيجاز تلك البحوث في أربعة اتجاهات:

الاتجاه الأول: مؤداه أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهى هبط على الإنسان وعلمه النطق وأسماء الأشياء، ومن أنصار هذا الاتجاه فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى " هيراكليت "، وأحمد بن فارس فى كتابه " الصاحبى " وابن جنى في " الخصائص "، وفي العصور الحديثة طائفة من المستشرقين على رأسها الأب لامى فى كتابه "فن الكلام " والفيلسوف " دبونالد " في كتابه " التشريع القديم " وليس لهؤلاء دليل قوى يمكن الاعتداد به.

الاتجاه الثاني: وفحواه أن اللغة ابتدعت بالمواضعة والارتجال وقد ذهب إلى هذا الرأي الفيلسوف اليونانى القديم،، ديموكريت " و " آدم سميث" الفيلسوف الإنجليزى وآخرون، وليس لهذا الاتجاه سند عقلي أو نقلى يمكن الاعتماد عليه.

وقد نُقد بأن المواضعة لا تتم إلا عن طريق عرف لغوي سابق عليها، وهذا يلزم عليه الدورَ – كما يقولون – لأن المواضعة تحتاج إلى مواضعة يتم بها الوضع.

الاتجاه الثالث: وترجع فيه اللغة إلى غريزة خاصة زُودَ الإنسان بها منذ القِدَم، وهذه الغريزة كانت تحمل كل فرد من بنى الإنسان على التعبير عن كل مدرَك حسي أو معنوي بكلمة خاصة، وكانت عند جميع الأفراد متحدة فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها، لذلك اتحدت المفردات أو تشابهت في طرق التعبير. ولكن تطاول العصور أثر على تلك الغريزة فتلاشت! ومن القائلين بهذا الاتجاه العلامة " ماكس مولر " المالاني.

وقد بنى هؤلاء رأيهم على أدلة مستمدة من دراسة أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوروبية. فقد تبين لهم أن مفردات تلك اللغات ترجع إلى

خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأم التي تشعبت عنها اللغة، فهى لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عصورها!! ؟

وعلى طرافة هذا الاتجاه، ودعمه بالدراسات الحية، فإنه فاسد من وجوه:

١ – أنه لا يحل المشكلة حتى يضع مكانها مشكلة أخرى هي افتراض الغريزة الكلامية.

٢ – وأن ما يقرره من قبيل تفسير الشيء بنفسه.

٣ – أنه لا يعالج جوهر المشكلة، لأن الهم هو معرفة أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنسانى، والأسلوب الذي احتذاه الإنسان في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة. والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب.

٤ – وأكبر خطأ وقع فيه هذا الاتجاه أن الأصول المذكورة التي اعتمدوا عليها فى الاستنتاج تدل على معان كلية – كما قالوا – والمعاني الكلية تحتاج إلى درجة عقلية راقية لم يجرؤ باحث منصف على إثباتها للإنسان في عصور بداوته، فكيف يصح جعل هذه اللغة " الهندية – الأوربية " اللغة الأم للغات الإنسانية؟

الاتجاه الرابع: وخلاصته أن أصل اللغة نشأ من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة (التعبير الطبيعى عن الانفعالات: أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة التي تحدث عن الأفعال الطبيعية كالشرب والقطع والكسر) وسارت فى سبيل الرقى تبعاً لارتقاء العقل وازدهار الحضارة، وممن قال به من العلماء العرب ابن جنى في الخصائص.

وقد رجح المحدَثون هذا الاتجاه لاتساقه مع طبيعة التطور ودعموه بأن لغة الطفل تتفق في مراحل تكوينها وتطورها مع ما تقرره هذه النظرية من مراحل تكوين وتطور اللغة الإنسانية في الدهور السحيقة.

كما دعموه بأن ما يقرره يتفق مع ما عُرِف من خصائص اللغات في الأمم البدائية، لهذا رجح المحدَثون هذا الرأي.

أنواع التعبير اللغوي:

التعبير اللغوي نوعان، الأول: تعبير لغوي طبيعى انفعالى بحت، ويشمل جميع الأصوات الفطرية – مقصودة أو غير مقصودة – التي تصحب مختلف الانفعالات السارة وَالمحزنة. كالضحك والبكاء والصراخ والأنين والتأوه.

وهذا النوع يتألف – في الغالب – من أصوات مبهمة تشبه أصوات الطبيعة وأصوات العجموات. مختلطة – أحياناً – بأصوات ذات مقاطع – حروف ساكنة – كالأنين والتأوه وأصوات لين (حروف مد) كالصراخ – ومن مميزات هذا النوع اتحاده عند جميع الناس لا فَرق بين جنس وجنس، ولا بيئة وبيئة وخلوه من الوضع.

والثاني: هو التعبير الوضعى الإرادى، ويشمل جميع الألفاظ الإرادية التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي تجول في نفسه لينقلها إلى الآخرين، ويقصدون بهذا النوع: الأصول المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات وإليه تنصرف اللغة عند الإطلاق، وهو أسمى مظاهر التعبير اللغوى.

وخصائصه كالآتى:

١ – أنه مكتسب لا فطرى

٢ – أنه إرادى لا آلى.

٣ – أنه يتمثل في أصوات مركبة تتألف منها كلمات وجمل (أسلوب) لا في أصوات.

٤ – أنه يُعبر عن معان تجول في النفس لا عن انفعالات مبهمة.

٥ – أنه يختلف باختلاف الأجناس والبيئات، ويحتاج إلى وضع واضع.

٦ – أنه وسيلة سهلة ميسرة للتخاطب ونقل الأفكار ولا يتوقف الانتفاع به على وسيلة سوى السمع.

تطور التعبير اللغوي:

رأينا اختلاف العلماء حول نشأة اللغة الإنسانية، والبواعث التي حملت الإنسان الأول على التعبير والكيفية التي بدأ بها تعبيره.

وتلك مشكلة ما زالت قابلة للبحث والدراسة، ثم هناك مشكلة أخرى متفرعة عنها، وهي: ما هى المراحل التي اجتازها التعبير اللغوي حتى أصبح لغة متكاملة اتخذها الإنسان وسيلة للتخاطب ونقل الأفكار بين أفراد المجتمع. . ويمكن حصر هذه المراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الصراخ، وفي هذه المرحلة لم يكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (لين) ولا أصوات ساكنة. بل – كانت مؤلفة من أصوات مبهمة كدوى الريح وخرير الماء، وحفيف الأوراق.

المرحلة الثانية: مرحلة المد، وفي هذه المرحلة ظهرت أصوات المد في اللغة الإنسانية وتخلصت من الأصوات المبهمة.

المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة ظهرت الأصوات الساكنة في اللغة مثل: الباء، والتاء، والثاء. . . وهكذا.

ويعتمد الباحثون في تقرير هذه النظرية على ما هو مشاهدُ من لغة الطفل فى مراحل نموها المختلفة، وهذا التقسيم من حيث تطور الصوت اللغوي نفسه، أما من حيث دلالته على معناه فلهم فيه مذهبان:

المذهب الأول: وعلى رأس القائلين به " ماكس مولر "، مؤداه أن الألفاظ بدأت دالة على معان كلية ثم تفرعت عنها المعاني الجزئية، ودليلهم عليه ما سبق ذكِره من الدراسة التي قاموا بها حول اللغات " الهندية – الأوروبية "، وقد سبق هناك أن هذه النظرية غير مسلمة، فكذلك ما أثبت – هنا – اعتماداً على صحتها.

المذهب الثاني: مؤداه أن المعاني الجزئية سابقة على المعاني الكلية، لأنها – أي المعاني الكلية – مرحلة أرقى من تلك. لذلك فإن النفس ترتاح لهذا الرأي". . ويمكن الاعتماد فيه على تطور الدلالة في لغة الطفل.

كما أن المعاني الحسية سابقة على المعاني الذهنية، والمعاني الحقيقية سابقة على المعاني المجازية، لأن كلاً من المعاني الكلية والذهنية والمجازية تتطلب رقياً فكرياً لم تتوافر وفريق آخر من الباحثين يقولون – اعتماداً على نظرية تُعرف بنظرلة العلامة ريبو–: إن أول ما نشأ من اللغة الصفات. ثم أسماء المعاني، ثم أسماء الذوات، ثم ظهرت الأفعال واختتمت مراحل رقيها بظهور الحروف.

ماهية اللغة.

إن أشهر تعريف للغة شاع في العصور الوسطى – وما زال العلماء يرددونه حتى الآن – هو أن اللغة: أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم.

وفى العصور القديمة تحدث " أرسطو " عن ماهية اللغة ووظيفتها وهي عنده وظيفة عضوية في الإنسان ورموز لمعاني الأشياء. . بدأت حسيَّة ثم صارت تجريدية فهى إذن رموز لتجارب أفادها الإنسان في حياته.

والمحدَثون لم يستريحوا للتعريف الذي شاع في القرون الوسطى، ورأوا فيه قصوراً في التطبيق، ففيه التعبير بالأصوات دون الألفاظ، وهو لا يمنع من اندراج الصراخ والموسيقى في مفهوم اللغة. كما أنه لا يشمل أغراض اللغة المتطورة لأنه يحصر غرضها في التعبير عن المقاصد مع أن أغراض اللغة – كما سنرى – قد تجاوزت هذا الحد بكثير.

لذلك حاول المحدَثون وضع تعريف للغة يساير تطورها كما نراه الآن، ونورد فى هذا المجال تعريفين، أحدهما للمفكرين من غير علماء النفس، والثاني لعلماء النفس.

أما تعريف المفكرين من غير علماء النفس فهو: " اللغة ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن مقاصدهم. وتتخذ أداة للفهم والتفاهم والتفكير ونشر الثقافة والمعارف الإنسانية "، وقد روعى في هذا التعريف ما تتركه اللغة من آثار في واقع الحياة وهي:

١ – التعبير عما يجول في النفس من أحاسيس وأفكار.

٢ – سهولة التفاهم بين الناس. وفهم ما يتبادلونه من آراء وأفكار.

٣ – ضبط التفكير ودقته.

٤ – نشر الثقافة بين الناس وتسجيلها ونقلها للأجيال.

وأما تعريف – علماء النفس فهو: " اللغة هي الوسيلة التي يمكن بها تحليل صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها بعيث يمكن بها تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا أو أذهان غيرنا بوساطة تأليف كلمات في وضع خاص ".

هذا التعريف يبين الخصائص النفسية للغة.

وقد روعى فيه جانبان:

١ – حالة التعبير أو الإرسال.

٢ – حالة الاستقبال أو التلقى.

عناصر اللغة:

وما دامت اللغة هي ألفاظاً، فإن موضوعها يشمل العناصر الآتية:

– المفرد:

واللفظ المفرد هو أول ما وُضِعَ من الكلام. وفيه تبدو اللغة في أبسط مظاهرها. لأن دلالته هي الفكرة الواحدة البسيطة سواء أكانت دلالة مستقلة أو بطريق الاشتراك مع ألفاظ أخرى مثل الترادفات. .

وسواء خُص اللفظ بمعنى واحد أو كانت له معان ويظهر المراد منها بالقرائن، ونريد ب " اللفظ المفرد " – هنا – الأسماء مطلقاً. دون الأفعال أو الحروف لأن الفعل لا يقع مفرداً وإن أمكن النطق به كذلك. لاستلزام الفعل فاعله، والحروف ليست لها دلالة مستقله.

والاسم المفرد – سواء أكانت دلالته حسيَّة مثل الورق، أو معنوية مثل الحرية، فإن هذه الدلالة لا يمكن استفادتها من الاسم إلا بعد تجارب يمر بها الإنسان مع اللفظ نفسه، وهذه التجارب في الغالب تعتمد على المراحل الآتية:

أولاً: كثرة المشاهدة والتكرار.

ثانياً: موقف الإنسان من هذا الشيء المتكرر المشاهَد.

ثالثاً: اختيار الإنسان ضابطاً لهذا الشيء وإطلاقه عليه.

رابعاً: اشتهار ذلك الشيء بهذا الإطلاق وارتباطه به في الذهن وجوداً أو عدماً.

هذه المراحل نظنها ضرورية لمشكلة وضع الأسماء على مسمياتها، ويمكن أن نسميها تجارب أصلية عامة كان لها دور كبير – وما زال– في وضع المفردات وهناك تجارب طارئة خاصة تكتنف دلالة المفرد. وتثير في الذهن شعوراً خاصاً مفرحاً أو مقبضاً حسب تجارب الشخص ونوعها، فكان لفظ يحمل معه تجربة عامة أصلية. كانت السبب المؤثر في الوضع اللغوي، ولعل هذه التجارب هي التي حدت ببعض اللغويين إلى القول بأن بين الألفاظ ومدلولاتها تلازماً طبيعياً.

وقد يحمل اللفظ معه تجربة خاصة طارئه "فكلمة " سجن " أو " حبس " تثير في النفس شعور القلق والنفور. . . وهذه تجربة أصلية عامة.

وقد تثير هذه الكلمة – سجن – لشعور الابتهاج السرور إذا كان بين مَن يسمعها إنسان قد عمل في السجن، وترقى في درجات الوظائف فيه.

وعاد عليه نفع كبير طيلة توليه عمله به. أو تمتع فيه بإدارة عمل حققت له نجاحا وشُهرة.

وهذه تجربة طارئة خاصة لا يحس بها إلا مَن كانت له هذه الصفة.

فإذا سمع هذه الكلمة آخر كان قد أمضى عقوبة في السجن وذاق في أثنائها ألوان العذاب والبؤس. فإنه يكاد يطير فزعاً لما تثيره فيه هذه الكلمة من الظلال الرهيبة، والذكريات الأليمة. . وذلك لاختلاف التجربة عند الرجلين فاختلفت آثار الكلمة فى النفس، وتباينت قيمتها الشعورية. .

كل حسب تجربته الخاصة فهذه كلمة واحده، لكن معناها النفسي يختلف من فرد إلى آخر، لأنه معنى ذاتى خاص مقيَّد بتجارب الشخص نفسه، فالمعنى النفسي للفظ إحساس وشعور خاص وليد التجارب، والتجارب تختلف. فهو معنى قانوى إذا ما قيس بالمعنى الواقعى لمدلول

الألفاظ، ويراد بالمعنى الواقعى: الخصائص التي استفيدت من التجارب الأصلية العامة التي مَر بنا شرحها.

والمعنى الذاتى بمنأى عن هذه المنزلة، فهو معنى ثان قد يُثار لدى الشخص إذا توافرت عنده دواعيه. فلا يصلح أن يكون وسيلة للتفاهم.

عناصر المعنى اللغوي:

الدلالة بنوعيها – الواقعى والخاص – تسمى الوظيفة الإشعاعية للفظ، ويبدو الإشعاع واضحاً عندما يكون اللفظ دالاً على ذات، لأنه عند سماعه يثير فى الذهن مدلوله الخارجى بشكله وهيئته وخصائصه وهذا هو المراد بالإشعاع. إذ هو قوة الإيحاء الذهنى، ووضوح التصوير، وهذا المعنى هو ما كان شائعاً فى دلالات اللفظ في اللغة القديمة قبل مرحلة التجريد.

ويعزو بعض العلماء نشوء فكرة السحر والرقيا بوسيلة الكلمات إلى تلك القوة التصورية التي كانت تشع من اللفظ فجعلهم ينظرون إليه كأنه المدلول عليه نفسه بما له من قوة تصوير.

أما عناصر هذه الدلالة الإشعاعية – أو المعنى – فإن العلامة " ريتشاردز " يراها على النحو التالى:

١ – المدلول: وهو الشى المقابل للكلمة، في عالم الواقع. سواء أكان هذا المقابل ذاتاً أو معنى يحصل تصوره في ذهن السامع.

٢ – الشعور الوجدانى: ويراد به شعور المتكلم نحو الشيء الذي هو موضوع الحديث. فلكل مدلول عليه شعور وجدانى خاص هو الذي يساورنا حين نذكر الكلمة الدالة عليه. مثل: أب – وطن – غول – تفاح. .

ألا تحس بتغيير فى شعورك الخاص نحو مدلول كل من الكلمات السالفة؟ وهذا الشعور الوجدانى هو الذي يرتبط بمدلول كل كلمة.

فهو عنصر من عناصر المعنى الذي تحمله الكلمة في مدلولها العام، وقَلَّ أن تتجرد عنه كلمة إلا إذا كانت رموزاً رياضية أو علمية لم ترتبط بشعور خاص مثل الرقم (٩٩٠)، والعلامة (+) . . . وهكذا.

٣ – النغم: فكل متكلم يعطى اللفظ نغمة خاصة تناسب حاله النفسية وتدل عليها مثل أن تقول: أنا فلان – في حالة فخر، وفي حالة إجابة عن استفهام عادى. فإن النغمة في حالة الفخر تختلف عنها في حالة الاستفهام العادى، حادة قوية في الأولى، رقيقة في الحالة الثانية.

ولذلك كان النبر في الكلام ذا دلالة واضحة على اختلاف المعاني مع اتحاد العبارات، ولذلك فإن كتابة العبارة تجردها من ميزة النغم. وتمخضها لدلالة واحدة هي التي جرى عليها الوضع والعُرف اللغوي.

٤ – القصد: وهو ما يرادف الحال في البلاغة العربية. إذ هو الأمر الذى يدعو المتكلم إلى أن يقول كلاماً ما. وهذا العنصر خارج عن مدلول اللفظ الذاتى. بخلاف العناصر الثلاثة السابقة فإنها ذاتية له.[١]

[١] انظر/ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبد العظيم المطعني، ص ٢٥–٣٨.

من وجوه البلاغة

من بلاغة القرآن

إحكام السياسة المنطقية على طريقة بلاغة القرآن

أورد الرافعي كلاما سديدا في السياسة المنطقية للبلاغة؛ يقول: "وبقي سر من أسرار هذه البلاغة المعجزة نختم به الباب، وهو شيء لا نراه يتفق إلا في من كلام النوابغ المعدودين الذين يكون الواحد منهم تاريخ عصر من عصور أمته، أو يكون من تاريخها، وهو إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة لا على طريقة المنطق فإن الفرق بين الطريقتين أن هذه المنطقية منها تأتي على أوضاع وأقيسة معروفة مكررة يسترسل بعضها إلى بعض، ويراد بها إلزام المخاطب ليتحقق المعنى الذي قام به الخطاب، إلزاماً بالعقل لا بالشعور، وبطبيعة السياق لا بطبيعة المعنى، ومن أجل ذلك تدخلها المكابرة، وتتسع لها المغالطة، وتنتدِح فيها أشياء من مثل ذلك؛ فراراً من الإلزام ودفعاً لحجته، وإن كان المعنى في نفسه واضحاً مكشوفاً، والبرهان طبيعة قائمة معروفاً.

بَيدَ أن طريقة البلاغة إنما يراد بها تحقيق المعنى، واستبراء غايته، وامتلاخُ الشبهة منه، وأخذ الوجوه والمذاهب عن النفس من أجزائه التي يتألف منها، بعد أن تُستوفى على جهتها في الكلام استيفاءً يقابل ما يمكن أن تشعر به النفس من هذه الأجزاء، حتى لا تصدِفَ عنه، ولا تجد لها مذهباً ولا وجهاً غير القصد إليه؛ فيكون من ذلك الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان حتماً مَقضِياً.

وهذا غرض بعيد وعَنتٌ شاق لا تبلغ إليه الوسائل الصناعية مما يتخذ إلى إجادة الكلام وإحكام صنعته البيانية، وإنما يتفق لأفراد الحكماء ودهاة السياسة ما يتفق منه، وحياً وإلهاماً، وإنما يلفونه على جهة التوهم النفسي الذي تتخلق منه خواطر الشعراء؛ فنحن نعرف علماً وتجربة أن الشاعر قد يعالج المعنى البكر، ويريغ الوجه المخترع، فيكد في تمثلِ ذلك

حتى يتسلط أثر الكد على فكره، ويضرب الملل على قلبه، ويصرفه الضجر؛ ثم لا يعطيه كل هذا طائلاً ولا يردُ عليه حقاً من المعنى ولا باطلاً، وما فرط ولا أضاع ولا قصَّر ولا استخف، ولا كان في عمله إلا من وراء الغاية، وقد تقع إليه في تلك الحال معان كثيرة تفترق وتلتقي، ولكن ليس فيها المعنى الذي من أجله نصب وإليه تأتَّى، فيضرِب عنه بعد المحاولة، ويقصِر بعد المطاولة حتى إذا استجمَّت خواطره، واستحدثَ منها غيرَ ما كان فيه، بلا تكلف، وهو لم يُعاودهُ ولا قصد إليه، وقد كان بلغ منه كلالُ الحد واضطراب الحمق مبلغ الزهَقِ والمعاناة، وإنما ألهمهُ في تلك الحال إلهاماً، فعاد ما لم يمكن بكل سبب، ممكناً بغير سبب!

وربما أراد الشاعر معنى من هذه الخواطر النادرة، فلا يكاد يبتدئ التفكير فيها أو يَهُمُّ بذلك، حتى يراه قد حصل في نفسه وهو لما يتمثل أجزاءه ولا استتم تصورَها، ولا كان إلا أنه أراد ما اتفق، واتفق له ما أراد.

ودع عنك أقوال الفلاسفة من علماء النفس وغيرهم، وما يعتلون به لمثل ذلك من أعمال الدماغ؛ فلو أن فيهم شاعراً لأفسد عليهم ما تأولوه واستخرج من رأسه الحقيقة، فإنما الشاعر مُلهَم، وكأنما تحدث نفسه في بعض أطوارها العصبية من جهة الغيب.

وإذا رجعنا إلى العقل ورأيه في استبانة هذا الشكل، وضربنا منه شبهاً مما يضرب الطبيعيون لله من أمثالهم إذا تنالوا البحث فيما هو من علم الله، قلنا: كنا من العقل. وصار إلى العقل. وليس شيء فوق العقل إلا لأنه لم يرتفع إليه بعد.

لما صدرنا عن هذا العقل، إلا بالبيان الغامض، وبالرأي المشتبه، وبما يكون العاقل فيه كالمتعلل أو المتمحل له، وكشف لنا العقل عن هذا السر بسر مثله، لا يقضي هو فيه ولا ينبغي صدقَ أسبابه إذ يحيلنا على

ما في الطبيعة من ذلك وأشباهه، فإن الإلهام أقدم منه في الوجود وأظهرُ منه أثراً، وأوضحُ منه سنة؛ وما بالعقل يبني الطائر عشه ويقطع بعض الطير إلى وطنه من أقاصي الأرض أو يجيء من غايته، ولا بالعقل يصنع النمل ما يصنع ويأتي النحل ما يأتيه من دقائق الهندسة وغير الهندسة؛ إلى أمثالٍ لذلك كثيرة، ولا أخذت هذه الأحياء الطبيعية عن الإنسان ولكن الإنسان هو أخذ عنها واهتدى بهديها! واتجه بعقله فيما وجهته إليه! ولو أن في رأس النملة عقلاً تدرك به ما تأتي وما تدَعُ، وتخرج به مما تعرف إلى ما تجهل، وتستعمله مع حذقها الطبيعي فيما يستعمل العقل له، إذن لما جلس في كرسي أكبر علماء الاقتصاد في هذه الأرض كلها إلا نملة من النمل.

بيد أن الإلهام طبقة فوق العقل، ولهذا كان فوق الإرادة أيضاً، وهو محدود في الإنسان والحيوان جميعاً؛ أما هذا (أي الحيوان) فلا يتصرف فيه ولكن يتصرف به، وبذا لا يكون أبداً إلا كما هو، ولا يعطي الإرادة المطلقة لأنها دون الإلهام.

وأما ذلك (أي الإنسان) فلا يُلقاه إلا في أحوال شاذة من أحوال النفس، وبذا لا يكون أبداً غيرَ من هو، ولا يُسلَب الإرادة لأن الإلهام فوقها.

ولو استطاع الناس يوماً أن يتصرفوا بالإلهام كما يتصرفون بالعقل، على أن يكون لهم الاثنان جميعاً، فيذهب كلاهما في مذهبه، ويتيسرون للأداة التي تخطئ وتصيب، والأداة التي تصيب ولا تخطئ – لتفاوتَ الأمر تفاوتاً قبيحاً، ولما بقي في الأرض إنسان يسمى إنساناً، ولكن الله تعالى يقلب أفئدتهم، وأبصارهم، فهذه للعقل، وتلك للإلهام، وكل يغني شأنه (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) .

وعلى هذا الوجه الذي بسطناه من أمر الإلهام والتحديث يكون وحي السياسة المنطقية التي أومأنا إليها وهي في لغة كل أمة أبلغ البلاغة، غير أنها في القرآن الكريم مما يُعجز الطوقَ، ولا تحتمله قوة النبوغ الإنساني، فقد أحكمت في آياته إحكاماً أظهرها مخلوقة خلقاً إلهياً، ولا مصنوعة صنعة إنسانية، وجعل كل آية منها كأنها في الكلام نفسٌ كلامية.

ولا نظن بتة أن عربياً يطمع في مثل ما جاء به أو يطوعه له الوهم، مهما بلغ من سقو فطرته ورقة حسه، ومن بصره بطرق الوضع التركيبي.

ونفاذه في أسرار البيان وتقليب أوضاع اللغة، فإن الشأن ليس في هذه اللغة ومتعلقاتها بمقدار ما هو في التوفيق بين أجزاء الشعور وأجزاء العقل على أتمها في الجهتين، وهذا باب لا ينفذ فيه إلا من كان شعوره وعقله وبيانه فوق الفكرة في أكمل ما يتهيأ لها من كمال الحقيقة الإنسانية التي تجمع تلك الصفات الثلاث: (البيان والعقل والشعور) والتي يقال لها من أجل ذلك: (النفس الناطقة) وليس في الناس جميعاً من يصح أن يقال فيه إنه فوق الفطرة بالمعنى الصحيح، وإن كان هو بسمو فكرته فوق الناس.

ولو ذهبتَ تعتبرُ القرآن كله لرأيت تلك الطريقة فيه أظهر الوجوه التي تبينه من كلام الناس وتجعله قبيلاً وحده، فإن لبلغاء الناس كلاماً جيداً في كل أبواب البيان، بيد أنك حين تأخذه متفاوتاً في أجزاء تلك السياسة المنطقية، وحين تدعه متفاوتاً في طريق النظم التي خرج بها القرآن كما عرفت من قبل: فلا هو من ذلك في نسقٍ ولاطريقة.

وما نشك على حال أن فصحاء العرب وأهل البلاغة فيهم قد أدركوا بفطرتهم هذه الطريقة المعجزة التي تنصرف إلى وجهٍ ثم تجيء من وجه آخر، ولا أنهم قد عرفوا أن هذا مما لا تقوم به البلاغة وضروبها، وأن غاية

كذ العقل في مثله أن يبعد بالمعنى عن صنعة اللسان، وغاية كد اللسان أن يدخل الضيم فيه على صنعة العقل، فإن دقَّ المعنى ولطفت مذاهبه وأحكمت الحيلة في تصريفه، قصر عنه البيان الذي ألفوه مذهباً لفظياً، وعرفوه افتناناً في الصنعة والتركيب، كما بسطناه

في مواضع كثيرة، وإن صرُح المعنى واستبانَ ولانت أعطافه وجاء على نسقهم في المحاورة والمخاطبة خرج على قدر ذلك وغبت عليه الألفاظ ولم يكن بتلك المنزلة.

وهذا بعض ما أيأسهم من المعارضة تيقناً أنه لا قبل لهم بها، واستبصاراً في حقيقة هذا الكلام، وأنه مما لا يستشري الطمع فيه، وأنه وحى يوحى؛ وهو عينه أيضاً بعض ما اجتذبهم إليه وعطفهم عليه، حتى كان بلغاؤهم يستمعونه وتصغى إليه أفئدتهم، ثم يتلاومون على ذلك؛ كما مرَّ في خبر أبي جهل وصاحبيه، وحتى قالوا كما حكى الله عنهم وأسجله في كتابه ليكون ثبتاً تاريخياً للعقل الإنساني: (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (٢٦).

فجعلوا كل أمرهم وأمره في آذانهم كما ترى، وما هي إلا سبيل الكلام إلى النفس؛ وكأنهم أقروا أنهم المغلوبون ما سمعوه، وليس في البيان عما نحن فيه أبين من هذا إخباراً عن حقيقة أو حقيقة من الخبر أو خبراً حقاً.

وعلى تأويل ما عرفته من هذه السياسة المنطقية، تحمل كلمة الوليد بن المغيرة المخزومي في خبره المشهور: فقد جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: با عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله.

فقال الوليد: قد علمت قريشٌ أني من أكثرها مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كارهٌ له، قال: وماذا أقول: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا؛ ووالله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه!

قال: فدعني حتى أفكر.

فلما فكر قال: " هذا سحرٌ يؤثر " يأثرُهُ عن غيره.

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد: إن وفود العرب تَرِدُ فأجمعوا فيه (يعني النبى – صلى الله عليه وسلم –) رأياً لا يكذب بعضُكم بعضاً.

فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ولا هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنْقه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عَقده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول إنه ساحر، وإنه سحر يُفرق به بين المرء وابنه والمرء وأخيه، والمرء وزوجته، والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السُّبل يحذرون الناس.

فتأمل كيف وصف تأثير القرآن في النفس العربية، حتى ينتزع الرجل من أهله وعشيرته وخاصِّ أهله وعشيرته انتزاعاً كأنه مسلوب العقل، فلا يتمكث ولا يلوي على شيء، وإذن ذلك الكلام كله لو أريد إجماله لم تسعه غير هاتين الكلمتين: (السياسة المنطقية) .

ولو أنعمت على تأمل هذه الجهة لانكشف لك السبب الذي من أجله لا نرى في كل ما يؤثر عن أهل هذه اللغة قولاً معجزاً، ولو اعترضت كثيراً وكثيراً من الجئد الرائع في الكلام، وقرنتَ بعضَه إلى بعض، وبلغت من البيان ما أنت بالغ، لأن كل ذلك ليس من القرآن في نسق ولا طريقة، وإن اتفق له منهما شيء اختلفت عليه منهما أشياء.

بيدَ أنك تقرأ الآيات القليلة من هذا الكتاب الكريم؛ فتراها في هذا النسق وتلك الطريقة بكل ما في اللغة، لأنها متميزة بصفتها، وبائنة بنسقها؛ ومتى اعتبرنا الشيء بطريقته التي يغالي به من أجلها، كان الترجيح عند المعادلة للطريقة نفسها؛ فلا عجب أن ظهرت طريقة القرآن بالكلمات

القليلة منها على جملة اللغة بما وسعتْ، ولا بدَّ أن يكون التحدي من هذه الطريقة بمثل تلك الكلمات على قلتها، (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) .[1]

١ إعجاز القرآن للرافعي، ص ١٨٣-١٨٧.

من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم

تنوع طرائق الأداء النبوي

تتنوع طرائق الأداء النبوي تنوعاً يستحق أن يُفرد له كتاب مستقل، ولكن مع هذه العجالة الموجزة نكتفى بالإشارة إلى بعض هذا التنوع في الأداء النبوي البليغ، بل المعجز في بلاغته البشرية المتسمة بقمة الكمال، فتخرج مواعظه – صلى الله عليه وسلم – كأنها أنين من فؤاد مقروح، وكيف لا ؟! وقد قال الحق – عز وجل – في رحمته ورأفته: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة:١٢٨).

فقد كان الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حريصاً على أن ينوع في طرق الأداء في حديثه بما يضمن قوة التأثير في نفوس سامعيه، دونما تكلف، أو طلب لوسيلة من وسائل الصنعة حتى لا يجاوز بكلامه مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستزله الفجاءة، وما يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب البليغ الرائع، فهو يسير على ما يقتضيه القول على البداهة والمبادأة، ولا يصعب عليه الرد على ما يفجأه من أغراض الكلام البعيدة التي تحتاج إلى التقدير، والروية وبعد النظر.

كما كان – صلى الله عليه وسلم– يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، وهذا دليل على أنه ضليع الفم، ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم، وتذم بصغره، لأن السعة أدل على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف، وجهارة الأداء، وإشباع ذلك في الجملة . ومعنى ذلك أنه كان يستعمل جميع فمه إذا تكلم، لا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب، ليلتمس بذلك تحقيق الحروف، وجهارة البيان، وتفخيم الأداء، ووزن المخارج، إذ كانت هذه هي

الدلائل الطبيعية على الفصاحة، وقد وصفوه مع ذلك بحسن الصوت، وقوته إلى جانب قوة المنطق والمعنى، وحضور الذهن واجتماع الفكر، فلا جرم كان منطقه – صلى الله عليه وسلم – على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة، وما يتهيأ لها فى إحكام الضبط، وإتقان الأداء، بلفظ مشبع، ولسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأدية، ونظم متساوق، وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبت وتحفظ وتبين، وترسل وترتيل (١).

وقد جمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – خصالاً من أحكام الأداء، لا يشاركه فيها منطق أحد، ولا تتوافى إلى غيره، ولا تتساوى في سواه، وقد قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها: ما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسرد كسردكم هذا، أي لا يتابع الكلام على الولاء والاستعجال به، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه. وفي رواية أخرى عنها أيضاً: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحدث حديثاً لوعدَّه العادُّ لأحصاه . والرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذه الصفات الأدائية ما ارتاض لها رياضة، أو تكلف تدريباً عملياً، بل خلق مستكمل الأداة فيها، ونشأ موفر الأسباب عليها، كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية (٢).

والبيان النبوي يكثر من استعمال طرائق أدائية متنوعة ليحقق المنشود، ويبلغ المراد من دعوته، وهاهنا نسوق طائفة من هذه الطرائق المتنوعة قد أكثرمن استخدامها النبي – صلى الله عليه وسلم – ليقرر بها الدين في نفوس المؤمنين:

١– وسائل التشويق والإيقاظ: كالاستفهام فيما أخبر به سويد الأزدي: " قال سويد الأزدي: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما دخلنا عليه، وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزِيِّنا،

فقال: من أنتم ؟، فقلنا مؤمنون، فقال: "إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم، وصدق إيمانكم ؟ ....."(٣)

فالرسول –صلى الله عليه وسلم– يعرف من هم من جهة النسب؛ لأنهم من الأزد، ولكنه يسأل عن حالهم العقيدي؛ فيقرون بالإيمان، ويعاود التساؤل عن حقيقة هذا الإيمان في صدورهم، وفيما يظهر من عملهم، فيفصلون القول حول هذا المعنى بما يكشف عن أن الإيمان قد وقر في صدورهم، وصدقته أعمالهم، وهذا ما قصد الرسول أن يُعْلِمهم به، فاستطاع عن طريق وسيلة الاستفهام أن يجعلهم ينطقون بما يريد منهم ليكون المعنى أكثر تثبيتاً في نفوسهم، وهذا أفضل من الإعلام المباشر بمقاصد الدين والشرع، وقد تفوق – صلى الله عليه وسلم – على أحدث نظريات التعليم التي تنادي بالأداء التعليمي غير المباشر، وسبقها بأكثر من ألف وأربعمائة عام.

ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "رغم أنفه . رغم أنفه. رغم أنفه!، قيل: من يا رسول الله ؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما، ثم لم يدخل الجنة" (٤).

نجد في هذا الحديث جملة دعائية بالفعل الماضي تأكيداً للوقوع لو لم يكررها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لكفى بصاحبها خيبة وخسراً، وتتكرر ثم تتكرر حتى يخفق قلب السامع، ويستولي عليه الرعب والفزع إشفاقاً على نفسه أن يكون هو ذلك الراغم الأنف. وأبهم الحديث بيانه فأضمره غائباً قبل الذكر حتى يستثير النفس بالانتباه،والنفس طلعة بطبعها إلى من يصدر عليه الحكم.

وقد فزع الصحابي لأنه لا يطيق الانتظار؛ فبادر بالسؤال فأجابه – صلي الله عليه وسلم – بأن هذا المحروم الشقي هو عاقٌّ الوالدين أو أحدهما عند الكبر، وهو يزيد ذلك توكيداً من قبل علاقة اللزوم، فينسب إدخاله الجنة أوعدم إدخاله إلى الوالدين كأنهما يملكانه تماماً .

أترى ملء الصحائف نصحاً ببر الوالدين، وبياناً لحقهما أجدى في بيان العاقبة من هذا الحديث النبوي الشريف الذى كانت كلماته مع المكرر زهاء العشرين!.

وكضرب المثل في قوله – صلي الله عليه وسلم – في فضل من عَلِمَ وعلَّم: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"(٥).

فالحديث يصور أحوال الناس مع شريعة الإسلام في فهمها والعمل بها، وقبولها والصد عنها، فيجعلهم طائفتين، ويجعل الأولى في نوعين: نافع و منتفع علي وجه الكمال ، ونافع علي وجه الكمال غير منتفع علي وجه النقص، أما الثانية فهي غير نافعة وغير منتفعة، وترشد إلى هذه القسمة نهاية الحديث التي جعلت المُمَثَّل له طائفتين متقابلتين في الصيغة.

وقد جاء الحديث علي سبيل المثل،وضرب المثل من الأساليب التي تشوق السامع إلى الخبر، وتمكنه من نفسه، وتجيل فكره فيه التقاطاً لحكمته.

فتمثيل من فقه في دين الله تعالى، وانتفع بما بعث به رسوله–صلي الله عليه وسلم– فعلم وعلّم بالطائفتين الصالحتين من أرض طيبة قد أخرج هؤلاء – وإن كانوا ممن يتناولهم الحس – في صورة حسية أوفي بالغرض، تملأ النفس إعجابا وروعة: كلأ وعشب كثير أنجبته الأرض غِبَّ الغيث،جنة فَيْنَانة فيها خير وبركة، وزيادة ونماء، ومتعة القلب، وبهجة الخاطر.كم يعرف العربي في صحرائه المضنية قيمة هذا التمثيل؟! .

والمياه في هذه البوادي المجدبة ظاهرة تجمع الرائح والسارح يشرب فيروى، ويسقي غيره، ويزيد فيزرع. كم تكون هذه الأرض نافعة، وكم يكون الرضا بها، والدعاء لها بالخير والصلاح؟!.

أليس طَيَّ هذا تجسيم الدين الذي جاء به النبى – صلي الله عليه وسلم – في صورة الغيث المغيث الذي تقام له الأعياد، وتُزَفُّ به البشري عند أهل البادية البعيدين عن المنابع والأنهار؟! .

وحسب الطائفة الأقل انتفاعاً من أختها دعاء الرسول –صلي الله عليه وسلم– بان ينضِّرَ الله وجه امرئ يسمع من شرع الله شيئاً فيبلغه كما سمعه، فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أوعى منه. إن هذا التمثيل حافز للعاقل علي حرصه أن يكون في الأمثل من هذه الطوائف.

وإن تمثيل الطائفة التي لم ترفع بالدين رأساً، ولم تقبل هدى الله بالطائفة من الأرض التي خابت، وخاب قاصدها، وبارت وباءت بكآبة الوجه، وسوء المصير، حتى لا يعرف خبرها مرتحل إلا نأى عنها بجنبه حذر الموت – إن تمثيلها بذلك حامل للإنسان علي الأناة والتهدِّى ودافع له إلى المقارنة و النظر، حتى لا يكون في الهالكين.

ومن وسائل التشويق إلى الخبر استخدام (ألا) الدالة علي العرض والتحضيض، ويكثر هذا النوع في الحديث النبوى، وأكثر ما جاء قد دخلت فيه همزة الاستفهام علي "لا" فاكتسب معنى العرض أو معنى الاستفتاح بحسب ما يمليه المقام، فعن عوف بن مالك الأشجعي –رضى الله عنه– قال: كنا عند النبى – صلى الله عليه وسلم – تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: (ألا تبايعون رسول الله –صلي الله عليه وسلم– ؟، فبسطنا أيدينا وقلنا:علامَ نبايعك يا رسول الله؟، قال: علي أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية قال: ولا تسألوا الناس شيئاً، قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله" (٦).

وفي هذا الحديث عرض المبايعة من النبي –صلي الله عليه وسلم– علي الصحابة –رضوان الله عنهم– بطريق الاستفهام التحضيضي، وفيه من اللطف وجلب الامتثال، وتحريك كامنة المخاطب ما لا يتأتى بصيغة الأمر (بايعوني) وحدها؛ لأنه يشعر المخاطب بشخصيته، وأنه طرف حر السلوك والاختيار، خلافاً لظاهر صورة الأمر الذي يوحي بالعلو والإلزام، وذلك التلطُّف في الطلب أولى بلباقة الداعي –صلي الله عليه وسلم– لأنه في معدن فصاحته، وأحد جذور خلقه العظيم، وفرع من فروع رحمته ورأفته بالمؤمنين.

ومن هذا القبيل الحديث الوارد في صلاة التسابيح؛ حيث روى عكرمة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن رسول الله –صلي الله عليه وسلم – قال للعباس بن عبد المطلب: "يا عباسُ يا عماه، ألا أعطيك ؟ ألا أمنحك ؟ ألا أحبوك ؟ ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك: أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده،صغيره وكبيره، سره

وعلانيته. عشر خصال: أن تصلي أربع ركعات؛ تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً . ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوى ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً . فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل؛ فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة؛ فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة" (٧).

فتأمل معي روعة التشويق إلى هذه الطاعة، وتشديد التنبيه إلى فضلها وعظم أجرها، وهذا واضح من عدة أمور هي: تكرار النداء في (يا عباس يا عماه) لينبهه إلى أهمية ما يقال بعد، ثم تكرار أداة الاستفتاح (ألا) أربع مرات للتشويق إلى هذه العطية الطيبة، والمنحة الكريمة، والخصيصة العظيمة.

كما ننظر إلى استيفاء أوجه غفران الذنب: أوله وآخره، وقديمه وحديثه، خطأه وعمده،صغيره وكبيره، سره وعلانيته – فنجد ما يثير التطلع، ويحرك الشوق إلى هذا العمل الطيب ذى الأجرالعظيم الذى يؤدى إلى غفران كل هذه الذنوب، ويحمل كل هذه البشرى والبركة.

فما من شك أن نفس العباس – رضي الله عنه – ونفوس كل من يسمع هذه المقدمات تتلهف شوقاً، وتشتعل تطلعاً إلى معرفة هذه الهدية والحبوة، وتلك العطية والمنحة التي ستكون سبباً إلى هذا الخير الكثير، ومقدمة إلى هذه النتيجة المفلحة، وبداية إلى هذه النهاية المسعدة، وكل ذلك يمكِّن للمعنى في القلب، ويشعل الفكرة في الذهن.

ومن وسائل التشويق في البيان النبوي تصدير الحديث بصفة غالبة من صفات الإثارة والتشويق، وهي – كما يرى الدكتور كمال عز الدين – أفانين لا ينتهي العجب منها(٨)، وسنكتفي بإيراد بعض منها، فمن ذلك لفظ (العجب) فيما جاء عن صهيب – رضي الله عنه – عن النبي – صلي الله عليه وسلم – أنه قال: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير – وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن – إن أصابته سراء شكر فكان خيراًله، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (٩).

والعجب تعبير عن روعة تأخذ القلب لمثير يعظم و يخفى سببه، إلا أنه كذلك في الغالب إذا نُسب إلى البشر، ويخرج عن ذلك أحياناً إذا قصد به إثارة الاهتمام بالخبر مع علم المتكلم بالسبب الذي يبطل عنده العجب، ويكون القصد منه بعث النشاط لدى المخاطب، وإثارة الانتباه إلى ما يكون العجب منه، حملاً للسامع على الاهتمام، ويكون معناه لازم العجب وهوالرضا والقبول، وفي ذلك تنويه بشأن المرضى عنه، وتعظيم لعمله، فلما أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – تعظيم أقدار هذه الأفعال في القلوب أخبر عنها باللفظ الذي يقتضي التعظيم، حثاً على فعلها، وترغيباً في المبادرة إليها.

ومن ذلك تقديم الخبر العجيب عند السامع لعدم جريه على المألوف العام من القواعد والعادات، فتشرئب إليه القلوب متمثلة في الأسماع والأنظار لتدرك ما وراءه، وتستشرف المعنى الذي يقصده الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم –، ومنه ما جاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ: وَكَيْفَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ أَخَذَ مِنْ

عُرْضِهِ مِائَةَ أَلْفٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَرَجُلٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ»" (١٠).

وفي هذا الحديث قدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمراً يستثير السؤال، ولاشك أن سبق درهم مائة ألف أمر عجيب، ولكن حينما يوضح الرسول– صلى الله عليه وسلم – إن المتصدق بدرهم قد أخرج نصف ما يملكه من مال، والآخر لم يخرج إلا اليسير مما يملك من الأموال الطائلة – زال العجب من سبق الدرهم للمائة ألف. والمال في نهاية الأمر مال الله قليله أو كثيره، والعبرة بمقدار الإيثار وحجم التضحية؛ فالمتصدق بالنصف غير المتصدق بالعرض والحواشي.

ومنه تقديم لفظ غريب المفهوم عند المخاطب حتى يلفت ذهنه، ويثير اهتمامه، وذلك كما جاء عن أبى هريرة – رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "تعوذوا بالله من جُبِّ الحزن . فقالوا: يا رسول الله، وما جُبُّ الحزن ؟ قال: وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة . قيل يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال: القراء المراءون بأعمالهم".(١١)

والجب البئر، وإضافته إلى الحزن أثارت اهتمام الصحابة، كما أثارت مخاوفهم، فأرادوا أن يعرفوا عنه تفصيلات تمكنهم من اجتناب هول هذا الجب المسجور بالآلام والأحزان، وتخلصهم من الرعب الذي ملك عليهم جوانحهم لمجرد سماع اسمه.

ومن أضرب الإثارة والتشويق في البيان النبوي الألفاظ الدالة علي العدد، وذكر العدد في بداية الحديث يكون بقصد إثارة السامع إغراءً به أو تحذيراً منه، ثم يعقبه البيان والتفصيل؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "كلمتان خفيفتان علي

اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىالرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".(١٢)

والبدء بالنكرة المثناة تحيير يدير ذهن السامع، يخف شيئاً فشيئاً بتلك المخصصات المتتالية من الصفات المغرية، ولكن كلما تخصصت النكرة بوصف منها زادت ثورة الشوق في النفس لمعرفة هاتين الكلمتين.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم . قالها ثلاثاً، قلت: خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال: المُسْبِل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب" (١٣).

ثلاثة: نكرة منونة مبدوء بها الكلام، لا يعلم معنى تنكيرها لما هي عليه من إبهام، ثم تأتي جملة النعت (لا يكلمهم الله) فيظهر الآن معنى التنكير، وهوالتحقير إلى درجة الحرمان من أسمى ألوان الخير، وتتكاتف معها ثلاث جمل أخرى علي التعاطف لتزيد من تحقيرهم، وترهيب من يحاول السير علي نهجهم المقيت.

أربع جمل موصولة تتصف بمجموعها كلمة "ثلاثة" النكرة، ثلاث منها سلب يجرد النكرة من أجر الثواب وصالح العمل، وأوفى الثواب علي العمل الصالح والإخلاص (عدم كلام الله العبد – عدم نظره سبحانه إليه يوم القيامة – عدم تزكيته له) وهي جمل فعلية مضارعية تدل علي أمرين: التجدد، أي الحصول بعد العدم، وقد انتفى عنهم أزلاً فانتفى أبداً لا لذواتهم، ولكن لصفاتهم الموجبة للحرمان، ومثوبة المؤمن وكرامته، لأنه بريء من تلك الصفات .

ثم تتقرر الجملة الاسمية الأخيرة "ولهم عذاب أليم" وهي للدوام والثبوت في ذاتها، وبتقدم المسند وهو الجار والمجرور علي المسند إليه، ثم بوصف المسند إليه وصفاً على المبالغة انقطع كل وهم يستبقي لهم شيئاً من الأمل، وهل يمكن لمن سلب تلك المكارم أن يكون جديراً بغير ذلك العذاب الأليم؟!.

الجمل المعطوفة الثلاث يلزم بعضها بعضاً من جهة المعنى، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه، فالمحروم من رحمة كلام الله، ومتعة إقباله عليه محروم – لاشك – من نظره إليه، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه غضباً لا يكون محل تزكيته، ثم من كانت هذه حاله فلا محالة ليس له إلا العذاب الأليم.

وقد عطفت هذه الجمل بالواو أولاً: للتناسب وعدم المانع، وثانياً: لأن العطف – كما يقال – يقتضي المغايرة، والمغايرة حاصلة بالتنويع، لأنها ألوان من العذاب بعضها غير بعض، وكونها كذلك أشد في الإيجاع، وأدل على الجريمة، فالكلام غير النظر، والتزكية أعم منهما .هذا كله كرره البيان النبوي ثلاث مرات تكريراً لفظياً يوجبه التقرير، للإنذار والوعيد في مقام الترهيب ليقتلع جذور الشر الموجبة للحرمان، وليقي الأصحاء وأهل السوية أن يختلس الشيطان قلوبهم فيمرضوا بهذه الداءات المعضلة.

كل هذا، وخبر هؤلاء الثلاثة لم يأت بعد، وما يزال أمرهم مبهماً، وما يزال الوعيد والسخط عليهم يعظم ويتفاقم، حتى أن أباذر – رضي الله عنه – لم يصبر تقاة من شرهم، واطمئنانًا علي سلامته، ولذا بادرفوصفهم بالخيبة والخسران تصديقاً للصادق المصدوق – صلى الله عليه وسلم – ثم سأل من هم هؤلاء المشئومون الخائبون الخاسرون؟، فأتى البيان بالصفات الموبقة المهلكة:

الْمُسْبِلَ: أَرَادَ بِهِ الْمُسْبِلَ إِزَارَهُ خُيَلَاءَ؛ من إطالة الثوب وإسباله، ويكنى به عن المتكبر المتعالي الذي ينازع الله – عز وجل – رداء عظمته، ونسي أنه ضعيف إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذه منه، وأنه يخلو كل يوم عدة مرات ليخرج شر ما في جوفه من بقايا الطعام و الشراب،وهل لمثل هذا أن يتكبر ويتعالى علي خلق الله، فسبحان الحليم على مثل هؤلاء .

المنان: الذي يعطي ما استخلفه الله فيه من الرزق، فينسى أنه وماله ملك الله، فيفسد ما أعطى، ويبطله بالمن والأذى كفراً بأنعم الله، وإذلالاً للكرماء من خلقه، أو يقدم – بمعونة الله وطاعة له – خدمة لخلقه، فيمحقها و يبدلها بالحديث عنها تيهاً وإعجابا.

المروج سلعته بيمين فاجرة كذوب، فيقتطع بها عرضاً فانياً حقيراً، ويخسر دينه،لأنه غاش و غير أمين من جهة، ويروجها مستغلاً اسم الله لهواه ومطامعه، وكان الواجب عليه تعظيماً لحق الله ألا يحلف به إلا صادقاً.

وهذه الموبقات المهلكات الثلاث يسيرة – في ظاهر الأمر – عند كثير من الناس الذين لا يظنون بها ذلك الخطر الخطير، فكان البيان الرفيع حريصاً الحرص كله علي تقرير خطورة هذه الموبقات، وتوكيد سوء العاقبة الذي ينتظر من يرتكبها، ولا يرجع عنها(١٤).

هوامش: فصل من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " : ص ٢٩٥ – ٢٩٧ .

(٢) انظر " المرجع السابق " : ص ٢٩٧ .

(٣) من وصايا الرسول " صلي الله عليه وسلم " : طه عبد الله العفيفي ، دار الاعتصام – القاهرة ١٩٨٥ م ، ج١ ص٢٢ . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى سننه (باب : الزهد) .

(٤) تيسير الوصول إلي جامع الأصول (سنن الترمذى) : عبد الرحمن بن على بن الربيع الشيباني ، مصطفي البابى الحلبى – القاهرة ١٩٣٤م ، ج١ ص ٤٥ .

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ابن حجر العسقلانى " ت ٨٥٢ هـ " ، تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد ، دار الغد العربى – القاهرة ١٩٩٢م ، ط . أولى ، ج ١ ص ٣٠٣ – ٣٠٥ .

(٦) تيسير الوصول : ج ١ ص ٢٠ .

(٧) من وصايا الرسول "صلى الله عليه وسلم " : ج ١ ص ٦٣٥ ،٦٣٦ . وأحبوك : معناه أخصك ، وقد ذكرته كاملاً لتمام الفائدة .

(٨) انظر " الحديث النبوى الشريف ؛ من الوجهة البلاغية " : د. كمال عز الدين ، دار اقرأ – بيروت ١٩٨٤ ، ط . أولى ، ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٩) تيسير الوصول : ج ١ ص ١١٢ .

(١٠) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان' لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)' تحقيق: شعيب الأرنؤوط' مؤسسة الرسالة – بيروت' الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣.

(١١) تيسير الوصول: ج ٢ ص ١١١ .

(١٢) السابق : ج ٢ ص ٨٦ .

(١٣) السابق : ج ٤ ص ٢٧٠ .

(١٤) انظر " الحديث النبوى الشريف ؛ من الوجهة البلاغية " : ص ٨٥-٨٧ .

المصادر والمراجع

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي.
الإعجاز والإيجاز، للثعالبي.
الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني.
البرهان في علوم القرآن للزركشي.
بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ٢٠٠٥م،.
البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها،عبد الرحمن الميداني.
البلاغة الواضحة، لعلي الجارم.
البلاغة للمبرد.
البيان والتبيين للجاحظ
تفسير القرآن العظيم لابن كثير
التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني.
خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبد العظيم المطعني.
دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، عالم الكتب.
دلائل الإعجاز،لعبد القاهر الجرجاني.
دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة.
رسائل الجاحظ.
سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي
الصناعتين، للعسكري، ت: البجاوي.
الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية، بيروت.
الطراز، للعلوي
العمدة، لابن رشيق القيرواني.
الفهرست، ابن النديم.
القاموس المحيط
كتاب الحيوان للجاحظ
كتاب الصناعتين، لبي هلال العسكري
لسان العرب

المثل السائر لابن الأثير
مجاز القرآن ، لأبي عبيدة عامر بن المثنى
معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه
المعجم الوسيط
مقالات الإسلاميين للأشعري.
من بلاغة القرآن، أحمد البدوي، نهضه مصر – القاهرة، ٢٠٠٥م.
منهاج البلغاء، للقرطاجني
موجز البلاغة، الطاهربن عاشور
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. النشار.
نظرية الصرفة حقيقتها القائلون به والردّ عليها، فتحي بودفلة، https://mtafsir.net/forum
نظرية النظم عند الجرجاني https://ar.wikipedia.org/wiki
النكت في إعجاز القرآن، الباقلاني
النكت في اعجاز القرآن، الرماني،
نهاية الأرب للنويري

فهرس

مقدمة
بين الفصاحة والبلاغة ____ ٧
الفصاحة ____ ٨
أ: فصاحة اللفظ. ____ ١٢
ب ـ فصاحة اللفظ في التركيب ____ ٢١
البلاغة ____ ٣٢
تعريفات القدماء لمصطلح البلاغة ____ ٣٤
عناصر البلاغة ____ ٣٦
آلة البلاغة ____ ٤٠
مخاطبة المتلقي ____ ٤٤
جماليات المعنى ____ ٤٥
البيان القرآني مفجِّر الدرس البلاغي ____ ٤٧
مؤلفات العرب في الإعجاز ____ ٥٠
دور اللغويين في نشأة علم البلاغة ____ ٥٧
تطور الدرس البلاغي وجهود العلماء فيه ____ ٦٣
المتن والشرح والحاشية والتقرير ____ ٦٨
إسهامات أعلام البلاغة (الجرجاني والسكاكي والقزويني) ____ ٧٠
يتألف علم البلاغة من ثلاثة علوم ____ ٧٥
نظرية النظّام القول بالصُّرفة ____ ٧٩
نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ____ ٨٥
تخير اللفظ البلاغة والنظم ____ ٩٣
نشأة اللغة ووظيفة التعبير اللغوي ____ ١٠٠
من وجوه البلاغة: من بلاغة القرآن ____ ١١٢
من وجوه البلاغة: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم ____ ١٢٠
المصادر والمراجع ____ ١٣٤
فهرس ____ ١٣٦